جـــامعة القـــاهرة
كــلية الآثار
قسم الآثار الإسلامية

رسالة دكتوراه بعنوان

الأزمات الاقتصادية وتأثيرها علي النواحي المالية والحضارية بمصر في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري في ضوء الآثار الإسلامية "دراسة أثرية حضارية"

مقدم من :

مرفت عثمان حسن علي

المدرس المساعد بكلية التربية جامعة عين شمس

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور :

عبد العزيز محمود عبد الدايم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية الآثار جامعة القاهرة

الدكتور :

أحمد السيد الصاوي

مدرس المسكوكات الإسلامية بكلية الآثار جامعة القاهرة

١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

صدق الله العظيم

الإجـــازة

أجازت لجنة المناقشة هذه الرسالة للحصول علي درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية بمرتبة الشرف الأولي مع التوصية بطبع الرسالة علي نفقة الجامعة وتبادلها مع الجامعات الأخرى بتاريخ ٢/٦/٢٠٠٥

بعد استيفاء جميع المتطلبات

اللــجنة

الاســم	الدرجة العلمية	التوقيع
١- أ.د. عبد العزيز محمود عبد الدايم.	أستاذ	
٢- أ.د. رأفت محمد محمد النبراوي.	أستاذ	
٣- أ.د. زبيدة عطا.	أستاذ	

الإهـــــداء

إلى روح أبي الطاهرة تغمده الله في رحمته ...

إلى أمي نبض قلبي نبع العطاء والحنان، من عطائك تخجلي أبداً لن تتململي يا شمعة دربي يا بلسم الزمان..

أطال الله عمرها بالخير ...

أهدي إليها هذا البحث، فلها جزيـل الشـكر والامـتنـان جزاهـا الله عني كل الخير ،،،

شكر وتقدير

أجد لزاماً عليّ أن يتصدر هذا البحث بأسمى كلمات الشكر والعرفان بالجميل إلى أستاذي العالم الجليل الأستاذ الدكتور / عبد العزيز محمود عبد الدايم، ولا أجد اليوم في مقامي هذا ما أوفي به حق مشرفي الذي شرفت بالنهل من علمه وتفضله بالإشراف على البحث فقد تحملني كثيراً وأسدى إلى النصائح العديدة، وأعطاني من جهده وإنسانيته وتعلمت منه الكثير، لا في حياتي العلمية فقط بل وحياتي العملية أيضاً، ومهما بلغت كلماتي فلن يستطيع قلمي أن يُعبر عن مدى تقديري وإعزازي للعالم الجليل، فكان لي نعم الموجه والمرشد والأستاذ الذي لا يضن على ابنته بأي شيء من مكتبته العلمية فنهلت منها الكثير والكثير فجزاه الله عني وعن العلم خير الجزاء، أطال الله في عمره وأعطاه مزيداً من الصحة والعافية،،،

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير والعرفان بالجميل إلى أستاذي الدكتور أحمد السيد الصاوي الذي تحملني الكثير والكثير ولم يضن علي بشيء من علمه فنهلت من علمه الغزير، واعترف بأنني قد اجهدته وأثقلت عليه لكنه تحملني وكان صبوراً معي، فقد أعطاني من وقته وجهده وإنسانيته، فتعلمت منه الصبر والدقة في الأمور والتعمق في فهم كل شيء، فكان لي نعم الموجه والمشرف والمرشد، أكثر الله من أمثاله...

جزاه الله عني وعن العلم خير الجزاء.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بجزيل الشكر وأسمى التقدير إلى كل من ساهم معي ولم يبخل علي بالمساعدة العلمية والنصائح وأخص منهم، الأستاذ الدكتور / رأفت محمد النبراوي، أستاذ المسكوكات الإسلامية، وعميد كلية الآثار الأسبق بجامعة القاهرة، والدكتور / عاطف منصور محمد رمضان، أستاذ المسكوكات الإسلامية المساعد بكلية الآداب بسوهاج – جامعة جنوب الوادي، والمهندس الاستشاري / علي ماهر متولي، ومركز تسجيل دراسة الآثار الإسلامية والقبطية بالقلعة وأخص منهم المهندس / أيمن محسن كامل، وأتقدم بالشكر إلى مكتبة مركز البحوث الأمريكي، ومكتبة دير الأباء الدومنيكان، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية، والعاملين بوزارة الأوقاف قسم الوثائق والمحفوظات وكل مكتبة ومركز ذهبت إليه واستفدت منه.

وأتقدم بالشكر لكل من قدم لي يد المساعدة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ومتحف كلية الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، وأتقدم بخالص الشكر إلى المهندس / أحمد عبد الباري منتصر الذي لولاه ما خرج هذا البحث بهذه الصورة.

فجزاهم الله عني وعن العلم خير الجزاء...

الكلمات الدالة علي الرسالة:

١- الأزمات
٢- الاقتصادية
٣- الإقطاع
٤- الروك
٥- الأوزان
٦- النقود
٧- الأسعار
٨- السلع
٩- العمارة
١٠ الفنون

ملخص الرسالة

من الظواهر ذات الآثار الاجتماعية التي اتسم بها تاريخ مصر في العصور الوسطي بوجه عام، وفي عصر سلاطين الأيوبيين بوجه خاص ظاهرة تعرض البلاد لأزمات اقتصادية خانقة إلي جانب المجاعات والأوبئة التي كانت تصحبها ليس في إقليم واحد فقط، بل كافة الأقاليم، ويتأثر بها البلاد والعباد، ثم لا تلبث أن تترك بصماتها واضحة في أحوال المجتمع وأوضاعه المالية والمعمارية بل والفنية أيضاً مما يجعل منها ثمة خطيرة من سمات العصر جديرة فعلاً بالدراسة والبحث، وتكمن أهمية الموضوع في أنه يمثل جانب الربط والتضمين من خلال الأزمات الاقتصادية وأثرها علي النواحي المالية والحضارية التي تظهر بوضوح في الآثار المادية التي تخلفت زمن الأزمات الاقتصادية باعتبارها دليلاً قائماً لا يتطرق الشك إلي شهادته بأي حال من الأحوال، وقد احتوت هذه الرسالة علي مقدمة وخمسة فصول وخاتمة تناول الفصل الأول الأسباب التي أدت إلي حدوث الأزمات الاقتصادية في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري، والفصل الثاني تناولت فيه بالدراسة والتحليل تأثير الأزمات الاقتصادية علي النواحي الإدارية والمالية في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري والفصل الثالث تحدثت فيه عن تأثير الأزمات الاقتصادية علي النقود وفي الفصل الرابع قمت بتحليل أثر الأزمات الاقتصادية علي الأسعار والقيم النقدية والرواتب والفصل الخامس فقد خصصته لدراسة تأثير الأزمات الاقتصادية علي العمارة والفنون التطبيقية الإسلامية من خزف، فخار، خشب، زجاج، معادن، نسيج وغير ذلك، ثم اختتمت الدراسة بخاتمة تحتوي علي أهم نتائج البحث، بالإضافة إلي أنني ذيلت البحث بثلاثة ملاحق لفيضان النيل،ومتوسط أوزان النقود وأسعار السلع الغذائية، وألحقت بالبحث قائمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية المختلفة، بالإضافة إلي كتالوج الصور والأشكال.

محتويات الرسالة

العنـــــــــــــوان	رقم الصفحة
المقدمـــة	١-٩
الفصل الأول: الأسباب التى أدت إلى حدوث الأزمات الاقتصادية فى العصرين الأيوبى والمملوكى البحرى.	
• الأسباب الطبيعية.	١٠-٥٠
• الأسباب البشرية	٥٠-١٠٢
الفصل الثاني: تأثير الأزمات الاقتصادية على النواحي الإدارية والمالية في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري.	
• نظم الحكم والإدارة ودور الوظائف في حدوث الأزمات.	١٠٣-١٢٧
• تأثير الأزمات الاقتصادية على الموارد المالية للدولتين الأيوبية والمملوكية البحرية.	
– الإقطاع .	١٢٧-١٦٨
– أثر النظام الإقطاعي على الفلاحين .	١٦٨-١٧٧
– أثر الأزمات الاقتصادية على مرافق البلاد المرتبطة بالري والزراعة.	١٧٧-١٩٨
– تأثير الأزمات على الخراج.	٢٠٠-٢٠٦
– تأثير الأزمات على الزكاة .	٢٠٦-٢٠٨
– تأثير الأزمات على المكوس .	٢٠٩-٢١٣
– تأثير الأزمات على الجوالى (الجزية).	٢١٣-٢١٤
– المواريث الحشرية .	٢١٥-٢١٧
– المصادرات .	٢١٧-٢٢٠
– أثر الأزمات الاقتصادية على المصروفات في الدولتين الأيوبية والمملوكية البحرية.	٢٢١-٢٢٨
– أثر الأزمات الاقتصادية على الأوقاف.	٢٢٨-٢٣٦

الفصل الثالث: تأثير الأزمات الاقتصادية على المسكوكات (النقود)

- الملامح العامة للتداول النقدي في نهاية العصر الفاطمي إلى نهاية العصر الأيوبي. ٢٣٧-٢٦٠
- أثر الأزمات الاقتصادية على دار الضرب في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٢٦١-٢٦٢
- العوامل المؤثرة في قيام دار الضرب بعملها. ٢٦٢-٢٦٦
- تأثير الأزمات الاقتصادية على وزن النقود. ٢٦٦-٢٦٩
- تأثير الأزمات الاقتصادية على وزن النقود في العصر الأيوبي (الدنانير). ٢٦٩-٢٨٣
- تأثير الأزمات الاقتصادية على وزن الدنانير في العصر المملوكي البحري. ٢٨٣-٢٩٤
- تأثير الأزمات الاقتصادية على عيار الدنانير في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٢٩٤-٢٩٩

– رسم إحصائي يوضح متوسط أوزان الدنانير في العصر الأيوبي.

– رسم إحصائي يوضح متوسط أوزان الدنانير في العصر المملوكي البحري.

الفصل الرابع: تأثير الأزمات الاقتصادية على الأسعار والقيم النقدية والرواتب

- السلع الغذائية
  - سعر القمح ٣٠٤-٣١١
  - سعر الخبز والدقيق ٣١١-٣١٤
  - سعر الأرز والشعير ٣١٤-٣١٧
  - سعر الفول ٣١٧-٣١٨
  - سعر أدوية المرضى ٣١٨-٣٢١
  - سعر الماء ٣٢١
  - سعر اللحوم ومنتجات الألبان ٣٢٢-٣٢٦
- موقف الحكومة من الغلاء وارتفاع الأسعار. ٣٢٧-٣٣٠
- موقف التجار من حدوث الأزمات وارتفاع الأسعار. ٣٣٠-٣٣٤
- أثر الأزمات الاقتصادية على أسعار الإبدال في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٣٣٤-٣٤٣
- جدول يوضح سعر صرف الدينار/الدرهم في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٣٤٤

- رسم إحصائي يوضح تطور سعر صرف الدينار / الدرهم أثناء الأزمـــات الاقتصادية في العصر الأيوبي.
- رسم إحصائي يوضح تطور سعر صرف الدينار / الدرهم أثناء الأزمـــات الاقتصادية في العصر المملوكي البحري.
- الرواتب واختلاف الوظائف من منشآه لأخرى. ٣٤٥-٣٤٧
- علاقة الأسعار بالمرتبات. ٣٤٧-٣٥٦
- التمثيل الإحصائى لتطور سعر القمح ف العصرين الأيــوبى والمملــوكى البحرى أثناء الأزمات الاقتصادية (الكيلوجرام/درهم).
- جداول توضح تطور سعر القمح أثناء الأزمات الاقتصادية في العصــرين الأيوبي والمملوكي البحري.
- رسم إحصائي يوضح تطور سعر القمح أثناء الأزمات الاقتصادية في العصر الأيوبي.
- رسم إحصائي يوضح تطور سعر القمح أثناء الأزمات الاقتصادية في العصر المملوكي البحري.
- جداول توضح مستوى احتياجات الأسرة من القمح بالدرهم وقياس ذلك بالرواتب في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري.
- رسم إحصائي لمستوى احتياجات الأسرة من القمح بالدرهم وقياس ذلك بالرواتب في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري.

الفصل الخامس: تأثير الأزمات الاقتصادية على العمارة والفنون التطبيقية الإسلامية

- أولاً: تأثير الأزمات الاقتصادية على العمارة في العصر الأيوبي. ٣٥٧-٣٦٩
- ثانياً: تأثير الأزمات الاقتصادية على العمارة في عصر المماليك البحرية. ٣٧٠-٣٩٠
- تأثير الأزمات الاقتصادية على الفنون التطبيقية في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٣٩٠-٣٩٢
- الخزف في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٣٩٣-٤٠٠
- الفخار في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٤٠٠-٤٠٤
- المنسوجات في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٤٠٥-٤٠٨
- المعادن في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٤٠٨-٤١٤
- الأخشاب في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٤١٥-٤١٧
- الزجاج في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٤١٨-٤٢٢

الخاتمة وأهم نتائج البحث. ٤٢٣-٤٣١

ملاحق البحث:

ملحق رقم (١): يوضح قياس النيل أثناء الأزمات الاقتصادية حسب ما ورد فى المصادر التاريخية فى العصرين الأيوبى والمملوكى البحرى ٤٣٢-٤٤٣

ملحق رقم (٢): يوضح متوسط أوزان الدنانير أثناء الأزمات الاقتصادية فى العصرين الأيوبي والمملوكي البحري ٤٤٤-٤٥٧

ملحق رقم (٣): يوضح أسعار المواد الغذائية أثناء الأزمات الاقتصادية فى العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. ٤٥٨-٤٧٤

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية.

كتالوج اللوحات والأشكال.

مقدمة:

يحتل عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك مكان الصدارة من اهتمام الباحثين في حقل تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى، وإذا كان النشاط السياسي والحربي في ذلك العصر قد ظفر حتى الآن بقسط وافر من الدراسة فإن الجوانب الاقتصادية متمثلة في النواحي المالية والحضارية لا تزال تفتقر إلى مزيد من الجهود والبحوث، هذا ومن الظواهر ذات الآثار الاجتماعية التي اتسم بها تاريخ مصر في العصور الوسطى بوجه عام، وفي عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك بوجه خاص ظاهرة تعرض البلاد لأزمات اقتصادية خانقة إلى جانب المجاعات والأوبئة التي كانت تصحبها، والغريب في أمر هذه الأزمات أنها كانت لا تقتصر على إقليم دون أخر من أقاليم البلاد، وإنما كانت تعم كافة الأقاليم وتتأثر بها البلاد والعباد، ثم لا تلبث أن تترك بصماتها واضحة في أحوال المجتمع وأوضاعه المالية والمعمارية بل والفنية أيضاً مما يجعل منها سمة خطيرة من سمات العصر جديرة فعلاً بالدراسة والبحث.

وتكمن أهمية البحث موضوع الدراسة في أنه يمثل جانب الربط والتضمين من خلال الأزمات الاقتصادية وأثرها على النواحي المالية والحضارية التي تظهر بوضوح في الآثار المادية التي تخلفت زمن الأزمات الاقتصادية باعتبارها دليلاً قائماً لا يتطرق الشك إلى شهادته بأي حال من الأحوال.

ولما كانت الآثار علم من علوم التاريخ بل هي السجل المادي الباقي لحوادث التاريخ فقد رأيت أن أدرس أثر هذه الأزمات الاقتصادية والتي تكرر حدوثها في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري علي النقود (المسكوكات) التي سوف تكون الدليل على ما وصلنا من الذهب والفضة التي ترجع إلى هذين العصريين، وعن طريقها وفي ضوئها يمكن تتبع ما ورد عن الاقتصاد في الوثائق والمصادر بل والمراجع المختلفة وكيف أن الفضة أخذت تنافس الذهب الذي اكتنز أثناء الأزمات الاقتصادية بل عن طريقها يمكن دراسة أسعار السلع الغذائية وعلاقة هذه الأسعار بالرواتب والأجور ومستوى المعيشة في فترات الأزمات الاقتصادية.

هذا وقد أثرت التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الإنتاج الفني والعمائر وبمعنى آخر أثر نتائج الأزمات على حركة التشييد والبناء في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري وأثر

ذلك على أحجام المباني ووظائفها ونصوصها التأسيسية ومنتجات الخزف والفخار والنسيج والصناعات المعدنية.

أما عن المنهج الذي اتبعته في دراسة هذا الموضوع فقد قسمته إلى مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة، وملاحق.

أما المقدمة فقد تناولت فيها أهمية البحث وسبب اختياره ليكون موضوعاً لنيل درجة الدكتوراه، ودراسة المقدمة تعتبر المدخل لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

فالفصل الأول: حمل عنوان: "الأسباب التي أدت إلى حدوث الأزمات الاقتصادية في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري"، فقد كان هناك أسباب وعوامل طبيعية كان نهر النيل في بداية تلك العوامل، ذلك النيل الذي قل ماؤه أحياناً أو فاض أحياناً أخرى فقضى في الحالتين على الزرع وأهلك الضرع، إلى جانب حدوث الأوبئة المختلفة والتي أثرت في الإنسان والحيوان وتسببت في هلاكهم بالإضافة إلى الآفات الزراعية من جراد وفئران ودود وكل هذا أثر في المزروعات وقضى عليها وتسبب في حدوث الأزمات الاقتصادية والمجاعات، وقد كان لهبوب الرياح وسقوط الأمطار ومجيء البرد ووقوع الزلازل واشتعال الحرائق سبباً في حدوث العديد من الأزمات الاقتصادية.

أما عن الأسباب البشرية التي أدت إلى حدوث تلك الأزمات فقد تعددت وتنوعت حيث كانت الفتن والاضطرابات على رأس تلك الأسباب، ووجود الفساد الإداري إلى جانب الحصار الاقتصادي الأوروبي والإسراف والتبذير الحكومي، بالإضافة إلى إهمال تطهير الترع وصيانة الجسور وانهيار النظام الإقطاعي، كل هذه العوامل والأسباب تشابكت مع بعضها البعض لتحدث أزمات اقتصادية عديدة.

أما الفصل الثاني من البحث موضوع الدراسة فقد حمل عنوان: "تأثير الأزمات الاقتصادية على النواحي الإدارية والمالية في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري".

وقد تحدثت فيه عن نظم الحكم والإدارة وكيف أن الوظائف العالية (المرموقة) في الدولة كانت لها دوراً كبيراً في وجود بل خلق أزمات اقتصادية فقد كان منصب السلطنة منصب يطمح إليه الكثيرون فكان هذا المنصب سبباً في حدوث الفتن

السلطنة منصب يطمح إليه الكثيرون فكان هذا المنصب سبباً في حدوث الفتن والصراعات والاضطرابات إلى جانب الحديث عن الموارد المالية للدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية المتمثلة في الإقطاع وأسباب انهيار هذا النظام وحال الفلاحين في وجود هذا النظام، وتحدثت أيضاً عن أثر الأزمات الاقتصادية على مرافق البلاد المرتبطة بالري والزراعة إلى جانب تأثيرها على الموارد الأخرى كالخراج والزكاة والمكوس والجوالي (الجزية) والمواريث الحشرية، كما تعرضت أيضاً لموضوع المصادرات، وتأثير الأزمات على المصروفات في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري، بالإضافة إلى أن الأزمات الاقتصادية أثرت بشكل أو بآخر على الأوقاف في كلتا الدولتين.

أما الفصل الثالث: فيحمل عنوان: "تأثير الأزمات الاقتصادية على المسكوكات (النقود)".

وقد أوضحت فيه أثر تلك الأزمات على التداول النقدي في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري وكيف أنها أيضاً أثرت على دار الضرب وكيف تأثرت تلك الدور بحدوث الأزمات الاقتصادية بالإضافة إلى تأثيرها على أوزان النقود خاصة الدنانير التي كان ينقص وزنها تارة ويتضاعف تارة أخرى، وقد أخذت بمتوسط أوزان الدنانير لمعرفة تأثير الأزمات عليها وأوضحت ذلك في جداول خاصة ورسم بياني يوضح تأثير تلك الأزمات على أوزان تلك النقود (الدنانير)، هذا إلى جانب تأثير تلك الأزمات على عيار الدنانير في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري.

والفصل الرابع: حمل عنوان: "تأثير الأزمات الاقتصادية على الأسعار والقيم النقدية والرواتب".

وتعرضت فيه للسلع الغذائية وسعر القمح الغذاء الأساسي والرئيسي لجميع فئات الشعب وكيف تعرض هذا السعر للتذبذب بالارتفاع والانخفاض حتى أنه كان يرتفع في السنة الواحدة بل في الشهر الواحد ويأخذ أسعار مختلفة ترتفع تارة وترتفع جداً تارة أخرى ثم تنخفض وأوضحت هذا من خلال رسم بياني (إحصائي) يوضح سعر القمح أثناء الأزمات الاقتصادية سواء في العصر الأيوبي أو العصر المملوكي البحري من خلال الكيلو جرام / الدرهم عن طريق جداول مختلفة لسنوات حدوث تلك الأزمات وتعرضت أيضاً لأسعار الخبز والدقيق،

الأرز والشعير، والفول، أدوية المرضى، الماء، اللحوم والدواجن ومنتجات الألبان، وقد أوضحت موقف الحكومة من هذا الغلاء وارتفاع الأسعار الذي اختلف من عصر لعصر ومن سلطان لآخر، فكان هناك من يقضي على أثر الأزمة وهناك من لا يستطيع حتى أن يفكر في حل تلك الأزمة، إلى جانب أن التجار كانوا يستغلون حدوث تلك الأزمات ويقوموا برفع أسعار السلع الغذائية بطريقة مذهلة فيعجز الناس عن شراء ضروريات الحياة.

هذا وقد أشرت إلى تأثير الأزمات الاقتصادية على أسعار الإبدال، وتعرضت للرواتب واختلافها حسب الوظيفة من منشأة لأخرى، إلى جانب علاقة تلك الأسعار بالمرتبات وهل هي كافية لشراء القمح أهم غذاء بل الغذاء الأساسي الذي يعتمد عليه الإنسان في حياته ثم أوضحت ذلك بتمثيل إحصائي يوضح مستوى احتياجات الأسرة من القمح بالدرهم وقياس ذلك بالرواتب.

والفصل الخامس: فقد خصصته لدراسة: "تأثير الأزمات الاقتصادية على العمارة والفنون التطبيقية الإسلامية".

تعرضت فيه لتأثير الأزمات الاقتصادية على العمارة في العصر الأيوبي الذي كان عصر تقشف وزهد فاتسمت المباني بالطابع الحربي البعيد عن الزخرفة والتأنق والثراء، فاقتصرت العمارة في هذا العصر على القلاع والأسوار والأبراج والحصون وغير ذلك، وعلى العكس من ذلك فنجد العصر المملوكي البحري يزخر بتشييد العمائر الفخمة ذات الثراء المبالغ فيه على الرغم من تعرض البلاد في أثناء هذه الفترات لأزمات اقتصادية عديدة إلا أنهم لم يكفوا عن تشييد تلك العمائر، أما العمران الشعبي فنجد أن الأزمات الاقتصادية قد أثرت عليه تأثيراً عظيماً فنجد خراب في الأسواق وقلة عددها إلى جانب الحمامات والحارات.

وفيما يخص الفنون التطبيقية من الخزف والفخار والمنسوجات والمعادن والأخشاب والزجاج فقد تحكم فيها نمطان نمط الطلب الأعلى، ونمط الطلب الأدنى، ونمط الطلب الأعلى هو القوة الشرائية العالية ذات السطوة والنفوذ من السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة من الطبقة العليا فاستخدم الفنون التي تناسب مكانتهم وتصنع لهم حسب مواصفات خاصة، أما نمط الطلب الأدنى ذات

القوة الشرائية الضعيفة من الفلاحين والفقراء تطلبت احتياجاهم سلع رخيصة تلبي احتياجاهم المعيشية الأساسية، لأهم غير قادرين على شراء السلع الغالية المتميزة.

هذا وقد اعتمدت على العديد من الوثائق المنشورة والوثائق غير المنشورة والتي أفدت منها إفادة كبيرة في معرفة رواتب الموظفين بالمنشآت المعمارية المختلفة إلى جانب العديد من المخطوطات والمصادر والمراجع العربية والأجنبية المختلفة التي أفادتني في البحث موضوع الدراسة والتي كان لزاماً على الرجوع إليها ومن المخطوطات التي أفدت منها إفادة كبيرة في أمر النيل مخطوط المنوفي: وهو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد السلام، الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٦ جغرافيا، ومخطوط السيوطي: جلال الدين السيوطي، مبدأ النيل على التحرير، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٨١ جغرافيا، وقد أفدت منهما في معرفة أول من قاس النيل بمصر ووضع مقياس للنيل في منف ثم المقاييس التي صنعت بعد ذلك والتي صنعها ملوك العجم فصنعوا مقياس بأنصنا وأخر بأخميم هذا بالإضافة إلى معرفة قياس النيل والزيادة فيه.

هذا إلى جانب مخطوط للخزرجي: أحمد بن محمد بن علي بن حسن بن إبراهيم الأنصاري الخزرجي، النيل الرائد في النيل الزائد، مخطوط بدار الكتب المصرية، جغرافيا ٤٥٨٤٤، ميكروفيلم ٧٥٢٠ ووصفه لنيل مصر وكيفية قياسه وزيادته ونقصانه وأثر ذلك على البلاد والعباد.

هذا إلى جانب بعض المخطوطات التي تتحدث عن سلاطين وملوك الدولتين الأيوبية والمماليك البحرية والتي سوف يرد ذكرها في المتن.

وقد أفدت إفادة كبيرة من المصادر المتعددة التي تتحدث عن العصرين الأيوبي والمملوكي البحري، فمن المؤرخين الذين أرخوا للدولة الأيوبية القاضي جمال الدين محمد بن سالم الحموي المعروف بابن واصل (ت ٦٧٩هـ/١٢٧٩م) في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب منذ قيامها إلى نهايتها على أيدي المماليك، هذا وقد عاصر معظم ملوك الدولة الأيوبية، وقد شاهد ابن واصل بنفسه الأحداث حيناً وتتسم أخباره بالوثائق الرسمية الهامة في الدولة الأيوبية، وهو من الكتب التي تحتوي على تاريخ مفصل ودقيق للدولة الأيوبية وسلاطينها جميعاً، وهذا الكتاب يقع في ستة أجزاء تناول الأول منها وصول صلاح الدين لحكم مصر، والجزأين الثاني والثالث فقد

تناولا عصر السلطان صلاح الدين وأولاده وفترة حكم السلطان العادل الأول إلى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، والجزء الرابع تناول عصر السلطان الكامل محمد، والجزءان الخامس والسادس فقد تناولا عصر الصالح نجم الدين أيوب وابنه الملك تورانشاه ومرحلة نهاية الدولة الأيوبية.

هذا إلى جانب مصادر متعددة ومتنوعة للعصر الأيوبي منها كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني (٥١٩هـ-٥٩٧هـ/١١٢٥-١٢٠٠م) والذي ولد بأصفهان وتوفى بدمشق، وهذه الكتب تحدثت عن صلاح الدين وجهوده وحروبه وسيرته التي تعتبر سجلاً حافلاً للجهود التي قام بها صلاح الدين من عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م إلى عام ٥٨٩هـ/١١٩٢م، بالاضافة إلي كتاب ابن شداد الملقب ببهاء الدين والذي ولد في الموصل سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م وتوفى في حلب سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م، وكتاب أبو شامة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.

ومن الكتب التي اعتمدت عليها في معرفة موارد الدولة المالية هي كتاب قوانين الدواوين للأسعد بن مماتي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) ناظر الدواوين وناظر الجيش في عهد صلاح الدين وهو أحد وزراء الدولة الأيوبية البارزين والذي يمكن اعتباره بحق من الكتب الفريدة في بابها العظيمة في قيمتها فهو يصف لنا حال البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي على وجه التقريب وقد أفدت منه في معرفة أحوال الخلجان والترع والجسور إلى جانب موارد الدولة المالية المختلفة من مكوس وجزية وجوالي وغير ذلك، فهذا الكتاب يعتبر وثائق من الطراز الأول لأنه تقلب في كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة خاصة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم أحد وزراء الدولة المسؤولين.

ومن أهم المصادر التي كان لها أهمية كبيرة في هذا البحث كتاب المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، وهو من الكتب الاقتصادية التي تحدثت عن المجاعات في مصر وما لاقته الجماهير المصرية من ضروب المحن والمآسي في غفلة ممن تربعوا على العرش الذين فصل الكثير الأعظم ما بينه وبين الشعب، وجعل كل همه جني الأموال والإكثار منها، والاحتفاظ بمراكز الحكم مهما كانت الوسيلة والطرق والآلام والمصائب التي تحل بالجماهير، وحاول أن يستقصى عن الأسباب التي

انتهت بها إلى تلك الأوضاع المفجعة استقصاء العالم الممحص المؤمن بشعبه، فهو عاش جانباً من حياته معاصراً لدولة المماليك البحرية، وجانباً آخر في عصر في دول المماليك البرجية وهما دولتان تكادان تكونان أغرب دولتين تحكمتا في تاريخ مصر ردحاً من الزمن غير قصير إذ امتد حكم الأولى إلى مائة وستاً وثلاثين عاماً (٦٤٨-٧٨٤هـ) وامتد حكم الثانية مائة وثلاثين عاماً (٧٨٤-٩٢٣هـ) وولى حكم الأولى خمس وعشرون سلطاناً وفي الثانية ثلاث وعشرون سلطاناً. فهذا الكتاب يعتبر مصدراً هاماً من مصادر تاريخ المجاعات في مصر ومعرفة أسبابها.

والمقريزي بحق يعتبر موسوعة هامة لدارسي التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية في كافة العصور ومختلف الأزمنة، فمن أهم كتبه أيضاً التي أفدت منها إفادة كبيرة كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار وهو في مجلدين (جزأين) فهو قد ذكر ما صارت إليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها، وتحدث أيضاً عن الدولة التركية الأولى ألا وهي دولة المماليك البحرية فقد ذكر كل صغيرة وكبيرة تخص مصر في زمن هاتين الدولتين، فقد ذكر وتحدث عن المساجد والمدارس والخانقاوات والأربطة والأسواق والحمامات والحارات وغير ذلك مما يوضح عليه سير الأمور والأحداث وما صار إليه من أمر هذه العمائر والأسواق والحمامات بعد حدوث الأزمات الاقتصادية التي أثرت عليها تأثيراً كبيراً.

وقد كان للمقريزي كتاب آخر يعتبر بحق موسوعة لمعرفة كل شيء عن الأحداث التي تمت في العصر الأيوبي وعصر المماليك البحرية ألا وهو السلوك لمعرفة دول الملوك فهو يتحدث عن النيل وزيادته أو قصوره إلى جانب أنه يتحدث عن السلع الغذائية وارتفاع الأسعار وموقف الحكومة والتجار من ذلك إلى جانب أنه يتحدث عن الأوبئة والطواعين وعدد من كان يموت من البشر من خلال هذه الأزمات حتى أنه يتعرض أيضاً للأسباب الطبيعية التي أدت إلى حدوث تلك الأزمات ويتطرق أيضاً ليتحدث عن العملة من الدنانير والدراهم أي أنه بحق موسوعة كبيرة تتحدث عن كل شيء وفي كل شيء.

ومن المصادر التي أفدت منها إفادة جمة كتاب ابن تغري بردي، كتاب النجوم الزاهرة، فهو كتاب كبير جم الفائدة في تاريخ مصر مرتب على السنين ابتدأه المؤلف بفتح عمرو بن العاص من ٢٠هـ/٦٤٠م إلى أثناء ٨٧٢هـ/١٤٦٧م وقد ذكر فيه من ولى مصر من الملوك والسلاطين والنواب ذكراً وافياً مع ذكر ملوك الأطراف بطريق إجمالي آتيا في كل سنة على ما وقع من الحوادث المهمة وذكر من توفى من رجالات الأمة الإسلامية وهو قد انفرد بعد أبي بكر

بن عبد الله بن أيبك مؤرخ مصر بإشارته في أخر كل سنة إلى زيادة النيل ونقصانه، حتى كاد يكون كتاب المرجع الوحيد لأمين سامي في كتابه تقويم النيل.

ومن المصادر الأخرى التي أفدت منها في معرفة مناسيب مستوى الفيضان بالأصبع والذراع وتتبع ذلك بالسنوات المختلفة التي حدثت فيها الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية كتاب الدواداري، كنز الدرر، على مبارك، الخطط التوفيقية إلى جانب كتاب تقويم النيل لأمين سامي. بالإضافة إلى العديد من المصادر المختلفة التي أفدت منها في هذا البحث ولا يسع المجال لذكرها جميعاً.

ومن أهم المراجع العربية التي أفدت منها كتاب مجاعات مصر الفاطمية للدكتور أحمد السيد الصاوي فقد تناول دراسة المجاعات التي اجتاحت مصر خلال العصر الفاطمي وتعمق في دراسة العوامل التي أدت إلى هذه المجاعات والأوبئة والأضرار التي صحبتها وناقش الآراء التي قيلت بصددها ثم تطرق إلى ما كان لها من أثر على النواحي المالية والحضارية معتمداً في ذلك بصفة أساسية على الآثار المادية التي تخلفت في زمن المجاعات باعتبارها دليلاً قائماً لا يتطرق الشك إلى شهادته بأي حال من الأحوال.

ولمعرفة العديد من الوظائف المختلفة وأهميتها وكيف أنها كانت سبباً في حدوث الصراعات والفتن فقد استعنت بكتاب الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية للدكتور المرحوم حسن الباشا، فقد تحدث في ثلاثة أجزاء عن جميع أنواع الوظائف وأهميتها وأنواعها.

ومن الكتب الهامة أيضاً كتاب النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى للدكتور إبراهيم طرخان، فقد تحدث عن الإقطاع والنظم الإقطاعية وكيفية تطور هذه النظم ومراحل تطورها منذ العصور الوسطى في الشرق والغرب وأصول هذه النظم وجذورها وأطوارها باختلاف البلاد والأزمنة.

ولمعرفة أوزان النقود فقد استعنت بكتاب ابن بعرة: منصور بن بعرة الذهبي الكاملي كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية تحقيق د. عبد الرحمن فهمي، وهذا الكتاب يخص العصر الأيوبي أي فترة حكم الأيوبيين لأنه كله يتحدث عن دار الضرب في العصر الأيوبي وأوزان النقود (الدنانير) في ذلك العصر.

هذا إلى جانب كتالوج النقود والصنج الزجاجية والقوالب والميداليات الإسلامية المحفوظة، بدار الكتب المصرية للدكتور رأفت النبراوي، د. نورمان، د. نيكول، د. جيري باكاراك لمعرفة أوزان النقود في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري. إلى جانب كتالوج النقود لـ

Henri Lavoix; Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque National.

إلى جانب كتاب أسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر في عصر المماليك الجراكسة للدكتور/رأفت محمد النبراوي فقد أفدت منه إفادة كبيرة في معرفة أسعار السلع الغذائية المختلفة، فقد تحدث عن أسعار تلك السلع في نهاية العصر المملوكي البحري.

هذا وقد أفدت إفادة كبيرة من بعض المقالات والأبحاث العلمية إلى جانب الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراه التي قد ورد ذكرها في البحث، وقد ختمت هذا البحث بخاتمة حملت العديد من النتائج التي توصلت إليها في البحث موضوع الدراسة.

وقد ألحقت بالبحث قائمة بأسماء الوثائق والمخطوطات والمصادر والمراجع العربية والأجنبية، هذا وقد ألحقت بالبحث الملاحق فأولها ملحق عن تطور منسوب الفيضان وعثرت عليه بين ثنايا سطور المصادر التاريخية، وملحق فيضان النيل كما أورده أمين سامي في كتاب تقويم النيل، والملحق الثاني يحتوي على جداول توضح متوسط أوزان النقود في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري، والملحق الثالث يحتوي على قوائم تفصيلية لأسعار السلع التي وردت في المصادر التاريخية وما يقابل أوزانها بالنظام المتري وهي التي اعتمدت عليها في الرسوم البيانية المتعلقة بهذه الأسعار أثناء المجاعات.

وألحقت أيضاً بالبحث بعضاً من اللوحات والأشكال لتوضيح بعض النقود والتحف ومساحات العمائر.

وأخيراً فإنني أتذكر دائماً موقف الباحث من بحثه شبيهاً بموقف القاضي عبد الرحيم البيساني للعماد الكاتب الأصبهاني في اعتذاره عن كلام استدركه عليه إذ قال: "إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا وهاأنا أخبرك به وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل"، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

الفصل الأول

الأسباب التى أدت إلى حدوث الأزمات الاقتصادية في العصر الأيوبى والمملوكى البحرى

- الأسباب الطبيعية.
- الأسباب البشرية.

الفصل الأول

الأسباب التى أدت إلى حدوث الأزمات الاقتصادية

فى العصر الأيوبى والمملوكى البحرى

مقدمه:

تعرضت مصر طوال عهودها التاريخية للعديد من الأزمات الاقتصادية والتى أشار إليها كبار المؤرخين مثل المقريزى فى جميع ما ألفه من كتب سواء كان منها الخطط، السلوك، إغاثة الأمة وابن إياس فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور، والقلقشندى فى كتابة صبح الأعشى، وبن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة وغيرهم العديد والعديد.

وللأزمات الاقتصادية أسباب عديدة إن يتصدر نهر النيل أهمها، بل يكاد يكون السبب الأول فى حدوثها هو نقص مياه النيل أو زيادته، حيث يؤدى حدوث كلاً منهما إلى تدهوز حال الأرض الزراعية، وحدوث الجفاف، وبالتالى زيادة الأسعار التى يعقبها الغلاء ثم الوباء، هذا ولم يكن النيل بالضرورة هو العامل الوحيد لحدوث الأزمات إذ كان هناك عوامل أخرى كانت سبباً فى حدوث تلك الأزمات، منها تولى أشخاص غير جديرين بالمناصب العليا فى الدولة مما كان يهدد معظم الدولة، ويحدث فيها اضطراباً يخل بالأمن فى الدولة، من هنا يحدث إهمال لمرافق البلاد كالترع والجسور، وما يترتب على ذلك من ضياع مياه النيل، إلى جانب أن الدولة كانت تحتكر الأقوات وتعرضها على الناس بأغلى الأثمان، وكذلك حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك[١] وسوء التدبير من جانبهم، وفساد العربان من جهة أخرى[٢]، وقد كان انعدام الأمن من أهم ما يسبب الأزمات الاقتصادية ويحدث اضطراب اقتصادى فترتفع الأسعار ويحل الغلاء بالبلاد[٣]

---

(١) د. سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة سنة ١٩٧٦م، ص ص٣٥٢-٣٥٣.

(٢) د. قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، ط١ سنة ١٩٧٨م، دار المعارف، ص ص٦٠-٦١.

(٣) المرجع نفسه. ص ص٦٠-٦١.

الأزمات الاقتصادية فى العصرين الأيوبى والمملوكى البحرى وأسبابها:

ترجع الأزمات الاقتصادية فى مصر إلى عوامل متنوعة تنقسم بطبيعتها إلى قسمين رئيسيين: أولهما: العوامل الطبيعية، ثانيهما: العوامل البشرية.

فالعوامل الطبيعية: هى العوامل التى لم تكن من صنع البشر وإنما هى محصلة ظروف بيئية لم يكن فى استطاعة البشر فى حدود قدراتهم المتاحة فى العصر الإسلامى أن يتحكموا فيها أو يسيطروا عليها حيث كان منتهى قدرتهم إزاءها أن يخففوا من حدتها أو يعالجوا بعض آثارها[١]

أما العوامل البشرية: وهى التى يقصد بها تلك العوامل التى تكون من صنع البشر، وأن البشر هم أساس حدوثها بل وصنعها كما سنرى فى الصفحات التالية.

فلنبدأ أولاً بالعوامل الطبيعية التى كان لها أكبر الأثر فى حدوث الأزمات الاقتصادية.

١- نهر النيل وفيضانه من الناحية الجغرافية:

مصر هى الأرض الطيبة التى أهدت للعالم ثمار حضارة عريقة، هذه الحضارة أشعت بأضوائها على العالم منذ عشرات القرون فمنحته الحكمة والثقافة والعلم[٢] ويمكن القول أن جغرافية مصر البشرية تعنى الجغرافية الاقتصادية تقريباً خاصة منها الزراعية[٣]، وللنيل فى مصر كما فى خارجها تاريخاً طبيعياً معقداً بالغ التركيب، فالنيل الأعظم بامتداده الهائل من العروض الاستوائية حتى البحر المتوسط، بل من أطراف نصف الكرة الجنوبى حتى قلب العالم القديم، لم ينشأ دفعة واحدة كنظام نهرى واحد، وإنما تكون أصلاً من مجموعة من النظم النهرية أو الإقليمية، بدأ كلاً منها منفصلاً مستقلاً عن الباقى، وربما فى عصور جيولوجية وظروف طبيعية مختلفة كذلك، ثم اتصلت تلك النظم ببعضها البعض وتلاحمت وتوحدت فى نظام نهرى واحد بسيط لكنه شديد الخصوصية[٤]

---

(١) محمد بركات البيلى، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية، مكتبة نهضة الشرق، ص٦.

(٢) د. محمد محمود على أبو زيد، النيل ومصر، دراسة لأثر النيل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر من الفتح الإسلامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الهداية للطباعة والنشر، ص٣.

(٣) جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة عبقرية في المكان، جـ١، القاهرة سنة ١٩٨٠م عالم الكتب، ص٥١.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٣.

وقد شبهت أرض مصر بقناة ذات طريقتين مفتوحين، ووصف النيل الذى يجرى بها كأنما هو نخلة باسقة تمتد جذورها فى أواسط القارة [(١)] أما جذعها فمجرى النهر نفسه، أما سعفها فالفروع التى تسرى فى الدلتا، فينبع من خط ٤ جنوباً ويصب عند خط ٣١,٥ شمالاً، وطوله ٤٠٠٠ ميلاً، ويلتقى به فى السودان النيل الأزرق والعطبرة، ويمدانه بالطمى أو الغرين الذى هو سبب خصوبة أرض مصر[(٢)]، وتكونت أرض مصر من رواسب النهر الضخمة، وخاصة حمولته من غرين الفيضان الحبشى فتربة مصر من صنع النيل، والغرين الخصب المتجدد هو جزئياً هدية غير مقصودة، فالنيل لا جدال أبو مصر[(٣)]، وقد شغل نهر النيل العقول منذ الزمان القديم، واضطر العلماء والأدباء إلى أن تعيره انتباهها، وتوليه حظاً غير قليل من تفكيرها وفلسفتها[(٤)] والدليل على ذلك ما ذكره المؤرخ الإغريقى هيرودت عندما قال "مصر هبة النيل"[(٥)] إذ لولا هذا النهر الذى يشق البلاد طولياً لما عرف العالم الحضارة المصرية التى هى بالأصل وليده البيئة الفيضية للنيل[(٦)]، ولنا أن نوضح أنه منذ الزمن السحيق وعلى أرض مصر، قبل وصول أى بشر ظهر النيل يعد المكان لاستقبال الإنسان، أدار مع الطبيعة ملحمة لا تقل هولاً وروعة عن ملحمة المصرى مع النيل وواديه[(٧)]، هذا وقد كان للنيل أفضال كثيرة على الناس[(٨)] فعندما تجمع الإنسان حول شاطئيه وفى مناطق دلتاه ...... بدأ يتعايش مع النهر، ويصنع حضارة مستقره تقوم على العلوم الرياضية والهندسية بعد أن علمه النهر كيف يمسك بالأزميل ليحفر على

---

(١) مزيد من التفاصيل عن جغرافية مصر خاصة تكوين نهر النيل. راجع: د. جوده حسنين جوده، جمرفولوجية مصر، مقال في كتاب جغرافية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتابة، ص ص٥٥-٦٧.

(٢) جابر سلامة المصرى، الزراعة في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٤م، ص أ.

(٣)E.Hymas. Soil and Civilization. London. 1952, P46. Lorin, Henri, L. Egypt d' aujourd' hui. Le Cairo, 1926, P129. جمال حمدان، شخصية مصر، جـ٢، ص٨٨٥.

(٤) د. محمد عوض محمد، نهر النيل في الأدب، المجلة العدد ٨، المحرم سنة ١٣٧٧هـ أغسطس ١٩٥٧م، ص٣.

(٥) محمد حمدي المناوى ، نهر النيل في المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦م، ص ص٧١-٧٢، بلانكا تيرا فيرا، النيل يمر ببلادي، ترجمة: عبد الرؤوف عز الدين، صلاح عطية نور الدين، مراجعة. د. على إبراهيم عبده، ص٢٠، مصر ونهر النيل، وزارة الخارجية، القاهرة سنة ١٩٨٣م، ص٥، جمال حمدان، شخصية مصر ، جـ٢، ص٨٧٦.

(٦) د. أحمد السيد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن للطباعة والنشر، ط١، سنة ١٩٨٨، ص١٣، جمال حمدان، شخصية مصر، جـ١، ص٦٦٥.

(٧)د. عبد العظيم أبو العطا، د. مفيد شهاب، أ. دفع الله رضا، نهر النيل الماضي والحاضر والمستقبل، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥، ص١٩.

(٨) د. هـ . أ. هرست، النيل، نقله إلى العربية المهندس حسن أحمد الشربينى، المقدمة.

الحجر، أو يمسك بالقلم ليخط على ورق البردى[1] فحول الصحراء إلى أرض خصيبة[2]، فالنيل مصدر رخاء ومنبع الثروة والخصوبة، فكان جديراً بأن يستلفت الأنظار[3]، وأن يفكر المصريون[4] وغيرهم فى أمره، وفى مصدر ذلك الفيضان الذى يعم الوادى كل عام بانتظام تام، وكان طبيعياً أن ينشأ حتى فى ذلك العهد البعيد تلك المسألة الجغرافية المشهورة مسألة نهر النيل أو سر النيل، ذلك السر الذى لم يتم حله إلا فى عصرنا هذا[5]، وقد شغل المفكرون منذ ستة آلاف من السنين[6] فارتبطت حياة المصريين به ارتباطاً وثيقاً حتى أنهم قدسوه وجعلوه إلهاً[7] وأطلقوا عليه اسم حابى[8]، هذا وقد ذكر أرنولد توينبى (Arnold – Toynby) "أن ليس عامل نشأة الحضارة الذى نسعى للتعرف عليه شيئاً مفرداً، لكنه متعدد وهو ليس وحده ولكنه علاقة"[9] وتميز نهر النيل "بالمركزية الشديدة" فهو يجرى من منابعه الاستوائية فى هضبة الحبشة جنوباً، متجهاً نحو الشمال حتى يلقى بمائه فى البحر المتوسط[10] ويلتزم فى جريانه هذا الاتجاه الشمالى باستمرار واطراد لا نظير لهما فى أى نهر آخر فى العالم[11]، هذا وقد كانت الطبيعة

---

(١) مختار السويفى، مصر والنيل في أربعة كتب عالمية، الدار المصرية اللبنانية، ط١، سنة ١٩٨٦م، ط٢ سنة ١٩٨٨م، ط٣ سنة ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٢) إميل لودفيغ، النيل حياة نهر، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧، ص١٣. طبعة أخرى بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥١، ص٩.

(٣) د.جمال مرسى بدر، نهر النيل في تاريخ الفكر الجغرافى، المجلة، العدد ١٠، ربيع الأول سنة ١٣٧٧هـ/ أكتوبر سنة ١٩٥٧م، ص٣.

(٤) المصريون الأول كانوا في بدء أمرهم أي في العصر الميثولوجى قبل الأسرة الأولى لا يعرفون عن مجرى النيل فيما وراء الشلال الأول شيئاً كثيراً، كانت دنياهم التى ألفوها وعرفوها منحصرة في ذلك الوادي الخصيب الذي كانوا يعيشون فيه، تحده الصحراء من جانبيه والبحر من شماله، والجنادل من جنوبه، وكانوا يتوهمون أن هناك بحراً في أسفل الأرض متصلاً بالنيل عن جنادله الجنوبية من جهة وعند البحر من جهة أخرى، وهذا البحر هو الذي تغيب فيه الشمس والكواكب مساء ثم تسبح فيه ليلاً وتعود ويظهر في الصباح، لمزيد من التفاصيل: راجع: محمد عوض محمد، نهر النيل، ط٢، سنة ١٩٤٨م، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص ص٥-١٥.

(٥) محمد عوض محمد، المرجع نفسه، ص٣.

(٦) أرنولدتوينبى، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ط٢، سنة ١٩٦٦م، جـ١، ص١١٧ عن د. أحمد الصاوي، المرجع السابق، ص١٤.

(7) Dr. John Ball, Egypt in the Classical Geographers, Cairo Gor. Press 1942, P2.

(8) Johnston, Harry Sir: A History of the Colonization of Africa by Alien races. The Nile quest, London, 1903. P7.

(٩) أرنولد توينبى، المرجع نفسه، جـ١، ص١٠١.

(١٠) د. أحمد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، ص١٤، محمد رشدي سعيد، نهر النيل نشأته واستخدام مياهه في الماضي والمستقبل، دار الهلال سنة ١٩٩٣م، ص ص٩-١٠.

(١١) د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، القاهرة ط٢ سنة ١٩٧٣م، الأنجلو المصرية، جـ١، ص ص٢١-٢٢.

الفيضية لنهر النيل هى التى فرضت وجود الدولة المركزية حيث جعلت إحساس المصريين المتصل بضرورة الخضوع لحكم مركزى مستقر، يشرف على الجهد وينسقه وينظم الانتفاع به، طالما كان انخفاض فيضان النيل يؤدى إلى القحط الشديد، وكذلك ارتفاع الفيضان يؤدى إلى إغراق القرى بالماء(١) ، ومنذ نشأة الدولة المركزية فى مصر القديمة، أصبحت الحياة فى وادى النيل إلى حد بعيد بين الإدارة (الإنسان) والنهر (الجغرافيا)، فحينما تصاب الإدارة المركزية بالاضطراب تضعف سيطرة الإنسان على النهر، وتقل المقدرة على تلافى أخطار الفيضانات المنخفضة والعالية، وكذلك كانت حالة النهر تؤثر فى السلطة المركزية ودورها، مما يعرض البلاد لتغيرات عميقة على كافة المستويات الحياتية، فالنهر والدولة المركزية إذن هما ضمان الحياة للمصريين(٢).

هكذا كان للنيل فضل على العالم كله(٣)، وإذا كان سبب الأزمات الاقتصادية والمجاعات فى غالب الأحوال هو نقص فيضان النيل، فإن الدولة المركزية بتوالى العصور أصبحت تلعب دوراً بارزاً فى الحد من أضرار الأزمة وتحجيمها، أو على العكس تكون سبباً مباشراً فى تفاقم الوضع، وتجاوز نتائجه الطبيعية إلى حد الكارثة، هذا ومن أهم ما يميز النهر بل ملامحه المميزة، هو أن فيضانه موسمى خلال فصل الصيف، وهو الذى أوجد هذا الوطن(٤) فالغرين الذى يحمله فى فيضانه كان سلاحه القوى فى صراعه الأبدى مع البحر والذى مكنه من أن يكسب لمصر رقعة كبيرة من الأرض هى الدلتا(٥) هذا وقد ثبت علمياً أن النيل ليس إلا الفيضان أو يكاد(٦) وقد ذكر د/جمال حمدان أن مصر هى هبة الفيضان، وأنه لولا الفيضان لكانت مصر مجرد بلد به نهر فصلى هزيل يولد ويموت كل سنة دون أن يضمن حتى الوصول إلى البحرى دائماً إلى حد يعنى

---

(١) د. سليمان أحمد حزين وآخرون، المجمل في التاريخ المصرى، القاهرة سنة ١٩٥١/ ص١٣-١٤.

(٢) د. أحمد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، ص١٥.

(٣) د. صلاح الدين الشامي، مياه النيل دراسة موضوعية، مكتبة مصر، ص٦.

(٤) د. أحمد الصاوي، المرجع نفسه، ، ص١٥.

(٥) تعتبر دلتا النيل كأحدث مظهر جيومور فولوجى بناه هذا النهر العظيم ذات أهمية اقتصادية فائقة لاستواء سطحها ولتربتها الفيضية الخصبة التى ساعدت على قيام نوع من الزراعة الكثيفة تعيش عليها أعداد هائلة من قاطنيها منذ أقدم العصور التاريخية، ولقد تضافرت قوى العمليات النهرية في تكوين هذه الدلتا وذلك من خلال عمليات التراكم الارسابى المستمرة التى حدثت عند مصب النيل الذي كان يلقى بحمولته في مياه شاطئ أمامي ضحل لخليج مجرى متسع، كما لعبت الأمواج والتيارات البحرية دورا كبيراً في تشكيل جبهة هذه الرواسب النهرية مزيد من التفاصيل الظر د. فتحي عبد العزيز أبو راضى، ديناميات التعرية الشاطئية والتغيرات المعاصرة لساحل دلتا النيل، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، العدد السادس سنة ١٩٩٠م، ص١١.

(٦) د. جمال حمدان، شخصية مصر، ص١٦٥.

أن النيل هو الآخر هبة الفيضان[1]، هذا وقد عبر المصرى القديم عن عرفانه بجمائل النهر وفضله العظيم على الأراضى المصرية والإنسان المصرى... وأطلق عنان بهجته فى تعبير شعرى جميل "هو النيل... يفيض على الأراضى (الوجه القبلى والبحرى)... فتمتلئ مخازن الحبوب... وتزدحم المستودعات... وتتوافر حاجات الفقراء، إنه النيل... لأبنائه جميع النباتات... وإذا هم لم يطعم الناس... هجر النعيم المساكن ... وأصيبت الأرض بالاضمحلال ... !! هو النيل إذن ... أعظم أنهار الدنيا، وعلى ضفافه الشمالية، نشأت أعظم حضارة صنعها الإنسان[2]، هذا وقد قيل إنه ليس فى الدنيا نهر يزيد بترتيب غير نيل مصر، وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على نيل مصر، ولا يجبى من خراج نهر من أنهار الدنيا ما يجبى من خراج[3]

نهر النيل وفيضانه من الناحية التاريخية:

لا شك أن أشهر حوادث انخفاض فيضان النيل ما ذكر فى القرآن الكريم فى سورة يوسف عليه السلام عندما قام بتفسير الرؤية التى رآها فرعون مصر حيثما روى أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ففسر ذلك سيدنا يوسف عليه السلام بقوله: "قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون، ثم يأتى بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون[4]، هذا وقد أشارت التوراة أيضاً إلى نصوص تلك الحادثة، أنه نتيجة لسنين القحط فقد أخذ يوسف تدابيره اللازمة عندما جعل كل الأراضى ملكاً لفرعون مصر لمواجهة السنين العجاف، هذا وقد ذُكر أن ملكية الفرعون لأراضى مصر سابقة على عهد يوسف[5] هذا وقد حدثت عدة مجاعات فى مصر القديمة كانت من الكثرة والخطورة[6] حيث نجد صور على جدران المقابر بعض مناظر الجوع، حيث نرى فى أحد هذه النقوش رسماً لإنسان قد

---

(١) جمال حمدان، المرجع السابق ص٦٥.

(٢)مختار السويفى، مصر والنيل في أربعة كتب عالمية، ص٢٤.

(٣) الكندى، عمر بن محمد بن يوسف من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فضائل مصر المحروسة، تحقيق د. على محمد عمر، طـ١ سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ص٤٤.

(٤) سورة يوسف، آية رقم ٤٧-٤٩.

(٥) د. أحمد عزت عبد الكريم ، الأرض والفلاح في مصر، مقال ضمن كتاب الأرض والفلاح في مصر على مر العصور- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٧٤م، ص٧.

(٦) د. أحمد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، ص١٦.

برزت عظامه وخارت قواه من شدة الجوع[1]، استمرت ظاهره فيضان النيل ونقصه خلال العصر البطلمي والعصر الرومانى عندما كان ينخفض النيل كانت تتوالى حدوث المجاعات التى أثرت على كل شئ فى الدولة، فرغم انخفاض الفيضان وقلة المحصول، وارتفاع الأسعار، إلا أن الحكومة كانت تصر على تحصيل الضريبة كاملة فاضر ذلك بأصحاب الدخول المحدودة والمتوسطة[2] هذا ويأتى قصور فيضان النيل فى مقدمه العوامل الطبيعية المسببة لحدوث الأزمات الاقتصادية، بل واشدها خطورة على الإطلاق[3] فهو المانح الأول للحياة على أرض مصر، فقد لعب دوراً رئيسياً منذ فجر التاريخ فى تحديد سمات أول حكومة مركزية فى العالم[4] فهو بفيضه وغيضه المؤثر الأول والفعال فى حياة البلاد الاقتصادية[5] فقد كانت الحياة كلها بمصر تتوقف على وفاء النيل[6] لأن مصر بلداً زراعياً فى المقام الأول.

ويمكن القول أن سكان وادى النيل حرصوا منذ القدم على متابعة نهر النيل والتعرف على طبيعته لما له من أهمية خاصة تؤثر على جميع ألوان الحياة وأنشطتها المختلفة المرتبطة بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك من هنا اهتم المصريون منذ القدم بمقاييس[7] النيل لمعرفة منسوبة ونسبة الزيادة والنقصان، هل إذا كانت هذه النسبة كافية لرى الأراضى الزراعية أم لا فى الفترة السابقة على الإسلام وقيل أن أول من قاس النيل بمصر هو يوسف عليه السلام

---

(١) جون ويلسون، الحضارة المصرية، ترجمة د. أحمد فخرى، القاهرة سنة ١٩٥٥م، ص شكل ٢، ب ، عن د. أحمد الصاوي، المرجع السابق، ص١٦.

(٢) د. أحمد الصاوي، المرجع نفسه، ص١٧.

(٣) محمد بركات البيلى، الأزمات الاقتصادية والأوبئة، ص٦.

(٤) أحمد الصاوي، المرجع نفسه، ص٩.

(٥) د. قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، ص٨.

(٦) د. حامد زيان غانم، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، المكتبة العالمية، سنة ١٩٧٦م، ص١٢ص١٣.

(٧) المقياس عمود رخام أبيض مثمن، في موضع ينحصر فيه الماء عند السيابه إليه، وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسماً متساوية تعرف بالأصابع، أنظر: المقريزى، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة المعزية سنة ١٢٧٠هـ، جـ١،ص٥٩، عنى المصريون عناية فائقة بقياس النيل وفيضانه لتقدير الخراج على الأرض الزراعية، ومن ناحية أخرى للتنبؤ بسنى الشدة والرخاء، فأقاموا لذلك المقاييس العديدة على طول مجرى النهر في أسفل الأرض (الدلتا) وفى أعلاها. راجع: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق/ مصطفى السقا، كامل المهندس، مطبوعات دار الكتب سنة ١٩٦٩م، ص١٧٨، محمد بركات البيلى، الأزمات الاقتصادية والأوبئة، ص٩.

ووضع مقياساً بمنف[١] ثم عمل ملوك العجم مقياساً بأنصنا[٢] وهو صغير الذراع ومقياساً بأخميم[٣] وعندما فتح العرب مصر عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقى أهلها من الغلاء عندما يقف النيل عن حدة فى مقياس لهم فضلاً عن تقاصره، وإن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار بغير قحط[٤]، هذا وقد ذكر عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً، والنهايتان المخوفتان الظمأ والاستبحار فى الزيادة والنقصان، ثمانية عشر ذارعاً فى الزيادة، هذا والبلد فى هذا الوقت محفور الأنهار ومعقود الجسور[٥] وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص أن يبنى مقياساً وأن ينقص ذراعين من إثنى عشر ذراعاً وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً إصبعين ففعل

(١) جلال الدين السيوطى، مبدأ النيل على التحرير، مخطوط بدار الكتب المصرية، ٣٨١ جغرافيا، ورقة رقم ٣،٤.

(٢) المنوفى: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد السلام، الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم٦٦ جغرافيا، ورقة ٢٠.

(٣) السيوطى: جلال الدين السيوطى الشافعي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جـ٢،ص٢٠١، أبي المحاسن: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٥هـ، ١٩٣٦م، جـ٢، ص٣٠٩.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ١ ص٥٨، السيوطى: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٠١.

(٥) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٥٨، أمر الخليفة عمر بن الخطاب باستشارة على بن أبى طالب، قالدة عمرو بن العاص أن يبنى مقياساً وأن ينقص ذراعين على إثنى عشر ذراعاً وأن يقرما بعدها على الأصل وأن ينقص من ذراع بعد الست عشر ذراعاً إصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له ما أراد من حال الأرجاف وزوال ما منه كان يخاف بأن يجعل الاثنى عشر ذراعاً أربع عشرة ذراعاً إلا أن كل ذراع أربعة وعشرون إصبعاً فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلا الاثنى عشر ذراعاً تكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشرة ثمالية وأربعون إصبعاً وهى الذراعان وجعل الأربع عشرة ست عشرة والستة عشرة ثمانى عشرة والثمانى عشر عشرين ذراعاً وهى المستقرة الأن ، السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٠١،، المقريزى ، الخطط، جـ١، ص٥٨.

ذلك وبناه بحلوان[1] ولعل أشهر المقاييس الإسلامية مقياس الخليفة المتوكل على الله بجزيرة الروضة ويعرف بالهاشمى، هذا وقد ذكر المقريزى أن الذراع السوداء التى وضعها هارون الرشيد هى الذراع المستخدمة فى قياسه، وتلك الذراع نسبة إلى عبد أسود كان يملكه وضع المقياس على أساس طول ذراعه[2] هذا وقبل الحديث عن كيفية قياس النيل والزيادة فيه يجب أن نورد ما ذكره المسعودى حينما ذكر ما وصفه بعض الحكماء عن نيل مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكه سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة اشهر سبيكة حمراء، فأما اللؤلؤة البيضاء فإنها فى مصر شهور (أبيب، ومسرى، توت) فيركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، وضيائها على روابى وتلال، وقد أحاطت المياه بها من كل وجه، وأما المسكه السوداء فهى (بابه، هاتور، كيهك) ينكشف الماء عنها وينضب أرضها، فتصير أرضاً سوداء، وفيها تقع الزراعات، وللأرض روائح طيبة تشبه المسك[3] وأما الزمردة الخضراء فهى شهور (طوبة، أمشير، برمهات) تلمع ويكثر عشبها[4] ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء، وأما السبيكة الحمراء فإنها شهور (برموده، بشنس، بؤونه) ففى هذه الشهور يتورد العشب ويبيض الزراع فهو كسبيكة الذهب

---

(١) يحيط ببناء هذا المقياس شك، ويرجح أن يكون ما تم به هو إصلاحاً للمقاييس القديمة فقط وأن أول مقياس إسلامي لا يذهب إليه الشك هو الذي أنشأه عبد العزيز بن مروان بحلوان عندما كان والياً على مصر، في فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ –٨٦هـ / ٦٨٥– ٧٠٥م)، وتلى ذلك إنشاء مقياس أسامه بن زيد التنوخي عامل الخراج بجزيرة الروضة، والذي بنى مرتين مرة عام ٩٢هـ / ٧١١م، والثانية عام ٩٧ هـ / ٧١٥م مزيد من التفاصيل أنظر : السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٠١، القلقشندى: أبي العباس أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٨٢١هـ/ ١٤١٨م المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، جـ٣، ص٢٩٨، كان الخليفة عمر بن الخطاب على دراية كاملة بخطورة الدور الذي يلعبه الاحتكار التجاري عنه حدوث الأزمات الاقتصادية، إذ أن المقصود بهذا التعديل أنه عند بلوغ النيل الذراع السادسة عشر حسب المقياس الجديد، يظن العامة أن النيل قد وفى تماماً وأن الأرض ستزرع جميعها فلا ترتفع الأسعار، وحقيقة الأمر أن النيل لم يبلغ سوى الأربعة عشر ذراعاً، وهكذا حتى نهاية المقياس، ولا شك أن فعالية هذا التعديل تستند أساساً إلى سرية إجراء هذا التعديل، الأمر الذي يشك معه في أن يكون هذا التغيير قد أتى ثماره، لصعوبة المحافظة على سرية هذا العمل الذي يستوجب معرفة أشخاص عديدين سيقومون به، راجع د. أحمد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، ص١٨.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٥٩.

(٣) أحمد بن محمد بن على بن حسن بن إبراهيم الأنصارى الخزرجى: النيل الرائد في النيل الزائد، مخطوط بدار الكتب المصرية، جغرافيا ٤٥٨٤٤، ميكروفيلم ٧٥٢٠، ص١٠-١١.

(٤) المسعودي: أبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودي ت ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، طـ٤، ١٩٦٤م، هامش (٣) ص٣٣٩، الأنصاري الخزرجى، النيل الرائد، مخطوط، ص١١.

منظراً ومنفعة[1].

أما عن كيفية قياس النيل تبدأ زيادة النيل من خامس بؤنه[2] من شهور القبط[3] وأول دفعه فى الثانى من أبيب وتنتهى زيادته فى ثامن بابه ويأخذ فى النقصان من العشرين منه فتكون مدة الزيادة (زيادة النيل) من ابتدائها إلى أن ينقص ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً وهى أبيب ومسرى وتوت، وعشرون يوماً، من بابه ومدة نكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوماً ثم يأخذ فى النقصان[4] هذا وتكون الزيادة فى ثلاثة أشهر وثمانية أيام وهى أبيب ومسرى، وتوت، وثمانية أيام من بابه[5]، أى أنها (الزيادة) تبتدئ من أبيب وتعظم فى مسرى وتتناهى فى توت أو بابة[6] وقد جرت العادة أن ينادى عليه دائماً فى اليوم السابع والعشرين من بؤنه بعد ما يؤخذ قاعة وهو ما بقى من الماء القديم فى ثالث عشر بؤنه ويفتح الخليج الكبير إذا أكمل الماء ستة عشر ذراعاً وأدركت الناس يقولون نعوذ بالله من إصبع من عشرين وكنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من

---

(١) المسعودي، المصدر السابق، ص١، ص٣٣٩.

	أسماء الشهور القبطية		ما يوافقه أول الشهر الميلادي
أسماء الشهور القبطية وأوله في الشهر الميلادي	توت	فصل الفيضان	١٢ سبتمبر
	بابه		١٢ أكتوبر
	هاتور		١١ نوفمبر
	كهيك		١١ ديسمبر
الشهور القبطية والتي كانت تحديد مواعيد زراعة المحاصيل وما زال يعرفها الفلاح المصرى حتى الأن	طوبة	فصل الزراعة	١٠ يناير
	أمشير		٩ فبراير
	برمهات		١٠ مارس
	برمودة		٩ إبريل
	بشنس	فصل الحصاد	٩ مايو
	بؤونه		٨يونيو
	أبيب		٨ يوليو
	مسرى		٧ أغسطس

راجع: محمد محمد فياض، التقاويم، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨م، ص٥٢، لبيب يعقوب صليب، الجغرافيا الفلكية للكتاب المقدس والتقويم القبطي المصرى، جـ١، ط١ سنة ١٩٦٨، ص٤٨ ص٦٧.

(٢) السيوطى، مبدأ النيل على التحرير، مخطوط بدار الكتب، ورقة ٢ المقريزى، الخطط جـ١، ص٦٠.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٢٨٩.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٦٠.

(٥) المنوفى، الفيض المديد، مخطوط، ورقة ٧(ص١٣).

(٦) عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مطبعة المجلة الجديدة، ص٥٨.

عشرين ذراعاً فاض من ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع[1] فإذا انتهت الزيادة إلى تمام ست عشر ذراعاً[2] ففيه تمام خراج السلطان وخصب الناس وفيه طما ريح البلاد وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلاء[3] ولهم مقاييس يقيسون بها الماء[4] هذا وليس فى الدنيا نهر يزيد بترتيب وينقص بترتيب فى وقت معلوم لا يختل أبداً غيره[5] أما عن منسوب مياه النيل وحدود الوفاء، فلا شك أن حالة فيضان النيل سواء بالنقص أو الزيادة، تؤثر على حياة المصريين فى حالة الرخاء أو القحط، هذا وقد اتفق معظم المؤرخين أن حد الوفاء عند الفتح الإسلامى كان الستة عشر ذراعاً[6]، والتى كانت تكفى لزراعة أرض مصر، ويفيض من الغلات ما يكفى لسنتين كما يذكر المقريزى[7] هذا وقد ذكر بعض المؤرخين أن النيل إذا أتم خمسة عشرة ذراعاً، ودخل فى ستة عشرة كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه، وإذا انتهت الزيادة إلى ١٦ ذراعاً كاملة النفع للبلاد وذلك كفائها ورى جميع أراضيها[8] قال محفوظ بن سليمان[9] "فإذا زاد بعد ذلك ذراعاً واحدة زاد فى الخراج مائه ألف دينار، لما يروى من الأعالى"[10] وأن ١٨ ذراعاً

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٦٠.

(٢) السيوطى، مبدأ النيل على التحرير، مخطوط بدار الكتب المصرية، ورقة ٣.

(٣) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص١٦٠.

(٤) الأنصاري الخزرجى، النيل الرائد في النيل الزائد، مخطوط، ص١٢.

(٥) المنوفى، الفيض المديد، مخطوط، ورقة (١٠) ص٢٠.

(٦) الأسعد بن مماتي، (الوزير الأيوبي ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، كتاب قوانين الدواوين، جمعه وحققه: عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر، سنة ١٩٤٣م، طبع الجمعية الزراعية الملكية، سنة ١٨٩٨م، ص٧٦، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٢٩٦ المسعودي،مروج الذهب،جـ١،ص٣٤٢،عبد اللطيف البغدادي،الإفادة والاعتبار، ص٥٧، المقريزى،الخطط،جـ١، ص٦١.

(٧) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٥٩ ، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣ ص٢٩٤.

(٨) المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٣٤٢ ، قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص١٦.

(٩) محفوظ بن سليمان عامل خراج مصر في عهد هارون الرشيد، ولاه سنة ١٨٧هـ ثم عزله، وأعيد في عهد الخليفة الواثق، واستمر في ولايته بمصر حتى مات سنة ٢٥٤هـ، راجع: الكندى، ولاه مصر، ص١٦٦ ص١٦٧ ، ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ١، ق١، ص١٥٨ ص١٥٩.

(١٠) المنوفى: الفيض المديد في النيل السعيد، مخطوط، ورقة (٢٠) ، الكندى ، فضائل مصر المحروسة، ص٤١-٤٢.

تؤدى إلى الاستبحار[١] وفيه نقص مائة ألف من خراج مصر[٢] وذلك ضرر لبعض الضياع.

وإذا بلغ عشرين ذراعاً مات ملك مصر[٣] يمكن القول أن نهر النيل وحده ليس هو العامل الأول (الأساس) المسئول عن حدوث الأزمات الاقتصادية، بدليل أن هناك سنوات مختلفة كان يحدث من خلالها أزمات اقتصادية وفيها يكون النيل قد وفىَّ أى أن ليس قصور النيل هو الأساس فى حدوثها، لكن هناك عوامل أخرى كانت سبباً فى حدوث الأزمات، وسوف يتم الحديث عنها فى حينها بمشيئة الله. وإليك سنوات حدوث الأزمات الاقتصادية فى العصريين الأيوبى والمملوكى البحرى بسبب قصور نهر النيل.

مُنىَّ العصران الأيوبى والمملوكى البحرى بكثير من المحن والكوارث والأزمات الاقتصادية كان سببها هو نهر النيل، ففى عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م هبط نهر النيل بدرجة لم تحدث إلا مرة واحدة فى دولة الفاطميين واشتد فى هذا العام الوباء، ومات من الخلق الكثير والكثير قيل أنهم نحو ثلاثة أرباع أهل البلاد، وكان وفاء النيل ١٦ مسرى من هذه السنة، فتح الخليج فى ٤ ربيع الثانى والماء بلغ ١٦ ذراع و ١٥ إصبعاً، وقال الناس سنة سبع إفترست أسباب الحياة[٤] وفى عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م زاد ماء النيل وبلغ فى الزيادة ١٣ إصبعاً من ١٩ ذراعاً، وهذا الحد عند أهل مصر يسمى اللجة الكبرى، فسقطت الجدران وغرقت البساتين وفاضت الآبار وقطعت الطرق[٥] وفى عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، بلغ النيل فى الزيادة ستة عشر ذراعاً إلا ثلاثة أصابع

---

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص١٦٠ ، المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٣٤٢، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الشركة العالمية للكتاب ش م ل، الطبعة الأول ١٩٩١م، ص٣٠، قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص١٦، والمستبحر كل أرض وطينة نفذ إليها الماء ولم يجد مصرفاً حتى فات أوان الزرع والماء باق على الأرض، راجع: المقريزى ، الخطط ، جـ١، ص١٠١، الكندى، فضائل مصر المحروسة، حاشية(١)، ص٤٤.

(٢) العلامة المحقق الشيخ جلال الدين السيوطى الشافعي، أثر متصل الإسناد في أمر النيل، المجلة، العدد (١٠) أكتوبر ١٩٥٧م، ربيع الأول سنة ١٣٧٧هـ ، ص٥٥-٥٦، المسعودي، مروج الذهب جـ١ ص٣٤٢، ابن بطوطة، الرحلة، ص٣٠. وسبب ذلك ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها، أما الأن فإن أكثرها لا يُروى حتى يروى أصابع من تسعة عشر ذراعاً بمقياس مصر.... وأما أراضى مصر الأن فلا تروى جميعها الأن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها، أنظر: المنوفى: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، ورقة (٢٣).

(٣) السيوطى، أثر متصل الإسناد في أمر النيل، ص ص٥٥ -٥٦.

(٤) أمين سامي، تقويم النيل، المطبعة الأميرية بالقاهرة، المقدمة جـ١، سنة ١٩١٦م، ص٢٩.

(٥) أمين سامي، المرجع نفسه، جـ١، ص٢٩ ص١٣٣، هذا وقد ذكر كلاً من الدوادارى: أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدويداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، جـ٧، ص٧٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ٦، ص٩٤ ، على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلاده =

الطرق[1] وفى عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، بلغ النيل فى الزيادة ستة عشر ذراعاً إلا ثلاثة أصابع فكسر السد ووقع الغلاء بمصر[2] وفى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م، لم يزد النيل فى هذه السنة إلا زيادة يسيره وهبط عن غير وفاء، واستمر الحال على ذلك ثلاث سنين متوالية فمات الناس من شدة الغلاء، وقيل أنهم بلغوا ثلث أهل مصر، وقد بلغ مقياس النيل فى ذلك العام ١٨ ذراع و ١٤ إصبعاً[3] وقيل أن تلك السنة كانت كالسبع المفترس[4] وارتفعت الأسعار وحدث الغلاء عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، بسبب نقص ماء النيل بعد ما بلغ ٢٢ إصبعاً من ١٧ ذراع[5] وقيل فى موضع آخر ٢٢ إصبعاً من ١٦ ذراع[6] وفى عام ٥٩٢هـ / ١١٩٥م كسر بحر أبي المنجا[7]

---

(١) أمين سامي، المرجع السابق، جـ١، ص٢٩ ص١٣٣، هذا وقد ذكر كلاً من الدواداري: أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، جـ٧، ص٧٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ٦، ص٩٤ ، على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلاده = =القديمة والشهيرة، الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠١هـ، جـ١٨، ص٥٣، أن النيل بلغ في هذا العام ٥٧٨هـ ، ١٧ ذراع و ٢ إصبع.

(٢) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١ ، ص ص١٣٠-١٣٥، ذكر كلاً من الدوادرى، كنز الدرر، جـ٧، ص٧٨، أنه بلغ ١٨ ذراع و ١٣ ذارع و ١٣ إصبع، وهذا عند كلاً من صاحب النجوم الزاهرة، والخطط التوفيقية مراجع جدول مقياس النيل ذكر المقريزى في كتابه السلوك أن النيل بلغ في هذا العام ٥٨٠هـ ١٣ إصبع من ١٩ ذراع فأضر ذلك بالقرى وخرج أهلها منها لسقوط جدرانهم، وغرقت البساتين والأقصاب، وفاضت الآبار وانقطعت الترع، وكثر الضرر كما حدث عام ٥٤٤هـ ، راجع: المقريزى: تقي الدين أحمد بن المقريزي كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، جـ١، ص١٩٩.

(٣) الدوادارى، كنز الدرر، جـ٧، ص١٠٦ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص١١٦.

(٤) ابن إياس: محمد بن إياس الحنفي (الجركسى) نبذة من نشق الأزهار في عجايب الأقطار، ص ص٨٠-٨١، Aparis l'Imprimere Imperiale, M. DCCC. VIII. Extrait du Tome VIII 1re Partie des Notices et Extraits de Manuscritsde la Bibliotheque imperial, أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص ص١٣٠-١٣٥.

(٥) المقريزى: تقي الدين أحمد بن المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: د. محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب بالقاهرة، سنة ١٩٤٣م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩١٤م، جـ١، ق١، ص١١٩ أنظر جدول قياس النيل.

(٦) الدوادارى ، كنز الدرر، جـ٧ ، ص١٢٣ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٣٦.

(٧) ذكر عنه القلقشندى أن الأفضل بن أمير الجيوش وزير المستعلى بالله الفاطمي هو الذي حفره، وكان سبب حفرة أن البلاد الشرقية كانت جارية في ديوان الخلافة، وكان معظمها لا يروى في أكثر السنين ولا يصل الماء إليها إلا من خليج سردوس، وهذا الخليج حفرة هامان لفرعون وبطل وعوض عنه ببحر أبي المنجاء وكان يشرف على هذا العمل أبو المنجا شعيا اليهودي فعرفت باسمه، وكان ميعاد كسرة من أعياد فيض النيل بالقاهرة زمن الفاطميين والأيوبيين، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣ ص ص٣٠١-٣٠٢ ، المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، دار ابن الوليد، حاشية (٢)، ص٣٢.

وباشر الملك العزيز عثمان كسرة وزاد النيل فيه إصبعاً وهي الإصبع ١٨ من ١٨ ذراعاً وهذا الحد يسمي عند أهل مصر اللجه الكبرى[١].

وقد شهدت الدولة الأيوبية المجاعة والوباء ابتداء من عام ٥٩٥ – ٥٩٦هـ / ١١٩٨ – ١١٩٩م، أي لمدة أربعة أعوام، وذلك بسبب توقف ماء النيل عن الزيادة[٢] وهناك من ذكر ثلاث سنين متوالية لم يطلع منه إلا القليل[٣] ففي عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م حدثت أزمة شديدة كان سببها توقف النيل عن الزيادة وقصوره عن العادة فقد انتهت زيادته إلى ١٢ ذراع وأصابع[٤] فشرقت معظم أرض مصر وارتفعت الأسعار[٥] وأعادت تلك الأزمة إلى الأذهان ذكرى الشدة العظمى التي وقعت في عهد المستنصر بالله الفاطمي إذ انتشر القحط حتى هرب الناس من مصر إلى الشام وغيرها فماتوا في الطريق من التعب والجوع[٦]، وفي عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، توقف النيل عن الزيادة وحدث القحط والوباء ولم يبلغ في الزيادة إلا ١٥ ذراعاً و ١٦ إصبعاً[٧] ثم توقف النيل عن الزيادة وانتهى في الزيادة إلى ١٢ ذراعاً وإصبعاً[٨] ثم هبط ولم يزد بعد ذلك شيئاً، فاضطربت أحوال الديار المصرية[٩] وهرب الناس إلى الحجاز واليمن والشام[١٠]، ثم حدثت أزمة أيام السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر ٥٩٦ – ٦١٥هـ/ ١١٩٩ – ١٢١٨م، وذلك بسبب توقف مياه النيل عن الزيادة[١١]، وفي عام

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ١ ، ص ص٦٠-٦١.

(٢) حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص٢٧.

(٣) المقريزى، إغاثة الأمة، ص٣٠.

(٤) المقريزى، إغاثة الأمة، ص٢٨، أمين سامي، تقويم النيل، ص٤٦. ذكر الدوادارى في كنز الدرر، جـ ٧، ص١٤٠، أنه بلغ ١٢ ذراع و٢٠ إصبع، وبلغ ١٢ ذراع و٢١ إصبع عند ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص١٥٩، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص٥٤.

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١٥٣ ، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٣٥.

(6) Lane – Poole (S); A History of Egypt in the Middle Ages, Third Edition, London, 1900, P215.

(٧) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١٥٨ ، المقريزى، إغاثة الأمة، ص٢٨، الدوادارى، كنز الدرر، جـ٧، ص١٤٨ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٨٠.

(٨) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٥٤ ، قيل ١٣ ذراع تنقص أصابع.

(٩) ابن إياس، المصدر نفسه، جـ١، ق١، ص٢٥٤.

(١٠) مصطفى الصفوى القلعاوى، صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان مخطوط بدار الكتب المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦م ، ورقة ٢٥.

(١١) حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص٢٨.

٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بلغ النيل ١٣ ذراع و٢٣ إصبع[١] وقيل انتهى إلى ١٤ ذراع وأصابع، وقيل بلغ ١٦ ذراع و ١٠ أصابع[٢] وقد ذكر بن تغرى بردى أن النيل بلغ ١٦ ذراع و ٣ أصابع، ولم يثبت فوقع الغلاء وكان قاع النيل ذراعين[٣] وفى عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، بلغ النيل ١٦ ذراع و٣أصابع[٤] هكذا توالى قصور النيل فى العصر الأيوبى فى أعوام مختلفة سجلت تلك الأعوام أزمات اقتصادية من ارتفاع فى الأسعار، واضطراب فى أحوال البلاد والعباد.

قصور النيل وفيضانه فى العصر المملوكى البحرى:

لا شك أن العصر المملوكى البحرى مُنّى بالعديد من الأزمات الاقتصادية التى كان نهر النيل أحد بل أهم أسباب حدوثها ففى عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م توقف نهر النيل عن الزيادة[٥] وبلغ ماء النيل فى هذه السنة ١٦ ذراع و١٧ إصبع[٦] وكسر بحر أبى المنجا خوفاً من النقص وذلك قبل أوانه بثلاثة أيام، وازداد الأمر سوءاً عندما بدأ النيل فى التوقف، وذلك عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م[٧] فأصبح أهل مصر فى قحط شديد ووباء مفرط[٨] إلى جانب هبوب الرياح السوداء التى كان لها أثرها هى الأخرى على الإنسان والزرع[٩] كما سوف يأتى ذكره، إلى جانب حدوث الغلاء الذى عانى منه الناس أشد المعاناة[١٠]، وفى عام ٧٠٨-٧٠٩هـ/

---

(١) النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، مركز تحقيق التراث، سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، جـ٢٩، ص١٦١.

(٢) أمين سامي، تقويم النيل، ص٣٠.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٧٥.

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٩.

(٥) ابن الوردي: العلامة الشيخ زين الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جـ٢، سنة ١٣٨٩هـ/ سنة ١٩٦٩م منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف، ص٣٤٤، المقريزى،إغاثة الأمة، ص٣١، حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص٣٢.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٧٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص٣١، أشار ابن تغري بردي إلى أن النيل بلغ عام ٦٩٤هـ، ١٦ ذراع هبط من ليلته فشرقت البلاد وأعقب ذلك غلاء عظيم في الأسعار نتيجة توقف ماء النيل عن الزيادة، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٦٨.

(٧)حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص٣٢.

(٨) اليافعى: الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعى اليمنى المكى ت سنة ٧٦٨ هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، (٤أجزاء)، جـ٤، دار الكتاب الإسلامي، ص٢٢٧، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦١.

(٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٧٩.

(١٠) الدواداري، كنز الدرر، جـ٨، ص٣٦٣.

١٣٠٨-١٣٠٩م حدثت أزمة اقتصادية توقف فيها النيل عن الزيادة فضج الناس لذلك فرسم السلطان بكسر السد من غير وفاء وقد نقص عن الوفاء ٣ أصابع فكسر السد واستمر فى النقص مدة غير قليلة فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة ١٥ذراع و١٧ إصبعاً، فشرقت البلاد ووقع الغلاء فى مصر وذلك فى أوائل سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير(١) وبلغ مقياس النيل عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م ، ١٩ ذراعاً و ١٠ أصابع(٢) فاستبحرت بعض أراضى مصر...... وأتلف للناس من القصب ما يزيد على ألف ألف دينار(٣)، وقد شهدت البلاد أزمة اقتصادية شديدة تأثرت بها البلاد والعباد بسبب حدوث الوباء العظيم عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ، واشتدت هذه الأزمة على الناس بسبب هبوط النيل الذى بلغ مقياسه ١٦ ذراع و ٢٣ إصبعاً(٤)، مما سبب اضطراب اقتصادى فى مصر فترة طويلة للغاية(٥) وتوالى قصور النيل فى سنوات مختلفة أثرت على البلاد والعباد مما سبب توالى حدوث الأزمات الاقتصادية.

فشهدت البلاد عام ٧٧٥-٧٧٦هـ / ١٣٧٣ -١٣٧٤م، حدوث انخفاض منسوب مياه النيل حيث بلغت زيادته ١٦ ذراعاً(٦) ولكن هذه الزيادة لم تكن كافية لرى كافة أراضى الديار المصرية، فشرقت معظم الأراضى، ولم يلبث أن وقع الغلاء وتزايدت الأسعار(٧)، وتوالى فيضان النيل بالزيادة أدت إلى استبحار الأراضى الزراعية، ففى عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، بلغ زيادة النيل ١٩ ذراع و ٢ إصبع(٨) وكذلك عام ٧٨١هـ / ١٣٧٩م، بلغ ١٩ ذراع و ٢ إصبع(٩) وفى عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، بلغ ٢٠ ذراع و٣ أصابع(١٠).

---

(١) ابن إياس،نبذة من لشنق الأزهار، ص ص٨٣-٨٤.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٢ ، ق٢ ، ص٣٥٣، وقد ذكر ابن الوردي أنه كان ١٩ ذراعاً فقط، وبن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص٤٢٦.

(٣) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص٤٢٦.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٢٤٣.

(٥) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص٥٦ ، قاسم عبده قاسم، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص٢٦١

(٦) المقريزى، إغاثة الأمة، ص٤٠، ذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه بلغ ١٥ ذراع و ١٩ إصبع، راجع: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٢٩.

(٧) حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص٤٩.

(٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٤٧.

(٩) المصدر لفسه ، جـ١١، ص٢٠٢.

(١٠) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص٣٠٦.

وما سبق من مناسيب مختلفة قبل العصرين الأيوبي والمملوكي البحرى لا ينطبق على العصرين الأيوبي والمملوكي البحرى، فمن الواضح أن كمية الفيضان اللازمة للزراعة فى مصر كانت تختلف من عصر لآخر وذلك على حسب اهتمام الدولة بأعمال الرى وتطهير الترع وإقامة الجسور، فالكمية التى كانت كافية فى فترات الاضمحلال[١]، وإذا ما وضعنا فى الاعتبار أن حالة الاضطراب التى سادت مصر منذ سقوط الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ/ ٩٠٤-٩٠٥م، ودوام النزاع بين الجند وتوالى الأزمات الاقتصادية لأمكننا القول بأن هناك تدهوراً قد طرأ على حد الوفاء نتيجة لإهمال مشروعات الرى، إلا أن التدهور لم يكن ليعنى أن ١٦ ذراعاً هو حد المجاعة خاصة وأن النيل كان يصل إلى هذا الحد فى سنوات لاحقة ولم تحدث مجاعة[٢]، وقد كان حد الوفاء يتغير بتقادم الزمن فمياه الفيضان ترسب ما بها من حمولة عالقة فوق مجرى النهر وعلى جانب النهر فى أراضى الوادى والدلتا، وهذه الحمولة تعمل على رفع منسوب قاع النهر، ورفع منسوب أراضى الوادى والدلتا عاماً بعد آخر، ويرتفع قاع النهر بمعدل أكبر من ارتفاع الوادى[٣]

ويقدر "جون بول" معدل ارتفاع الوادى بحوالى ٩سم كل قرن[٤] أما "ويكلوكس" فيقدر الإرساب على القاع بحوالى ١٢سم كل قرن[٥] ، فبعد أن كان حد الوفاء فى القرن الأول والثانى والثالث الهجرى نحو ١٥ ذراع، أصبح فى القرون الرابع والخامس والسادس ١٦ ذراع، ثم أصبح فى القرنين السابع والثامن ١٨ ذراع، وفى القرنين التاسع والعاشر أصبح حد الوفاء ٢٠ ذراع، وشاركت الجسور وتدهورها والترع بالإضافة إلى ارتفاع قاع النهر فى ارتفاع منسوب مياه النهر[٦]، وثمة بعض الملاحظات يمكن أن نوردها فيما يلى:

* أصبحت الـ ١٦ ذراعاً لا تفى بحاجات البلاد، وصار الأمر يتطلب بلوغ ارتفاع النيل ما بين الـ١٨ ذراع والـ ٢٠ ذراع، ولم يعد الـ ١٧ ذراع كافية لرى جميع الأراضى الزراعية ولم تعد الـ ١٨ ذراع والـ ٢٠ ذراع يسبب خطورة على الأراضى والمحاصيل الزراعية والسبب

---

(١) فاتن عز الدين إبراهيم العارف، فيضان النيل في مصر منذ الفتح العربي حتى الوقت الحاضر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق سنة ١٩٩٠م، ص١٩٠.

(٢) أحمد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، ص٢٦.

(٣) فاتن عز الدين، المرجع السابق، ص١٩٨.

(٤) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٥) المرجع نفسه ،والصفحة نفسها .

(٦) المرجع نفسه، ص٣٣٩.

فى ذلك هو إهمال الجسور والترع بل جميع مشروعات الرى وذلك إما بسبب سياسة الحكام وضعفهم، أو بسبب الفتن والاضطرابات بين الأمراء مع بعضهم البعض أو غير ذلك من الأسباب التى سوف نتحدث عنها فى الصفحات القادمة.

* ليس هناك تاريخ محدد يصل فيه النيل إلى حد الوفاء بل يتوقف ذلك على كمية المياه الواردة كذلك على منسوب الماء القديم، وبذلك يختلف الوفاء من عام لآخر[١]

* اختلف المؤرخين فى تفسير أسباب الفيضان، فهناك من يرى أن فيضان النيل يحدث نتيجة لما تمده به الأنهار الأخرى والينابيع من مائها، حيث تجف هذه الينابيع وتحترق بعض الأنهار أثناء فيضان النيل[٢] ويرى البعض الآخر أن فيضان النيل يحدث نتيجة لهبوب الرياح الشمالية التى تثير البحر المالح فيقف أمام النيل كالسد فيزيد ماؤه[٣]

ومع ذلك نجد أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن فيضان النيل يحدث نتيجة لسقوط الأمطار فى فصل الصيف على هضبة الحبشة والبلاد الواقعة فى الجنوب.

ونستطيع القول بأن أسباب الزيادة المستمرة للنيل هى:

* الارتفاع المستمر فى منسوب الأراضى الزراعية، بسبب ما يترتب على وجه الأرض من الطمى المجلوب مع الفيضان السنوى بالإضافة إلى إطماء قاع المجارى المائية واحتياجها إلى ارتفاع منسوب المياه حتى تدخلها.

* ضعف الجسور وإهمال صيانتها إذ يترتب على تقويتها وإحكامها تقليل نسبة الفاقد بالإضافة إلى قلة المقدار اللازم للوفاء بحاجة الأراضى الزراعية من المياه.

---

(١) فاتن عز الدين، المرجع السابق، ص١٩٨.

(٢)ابن عبد الحكم، سنة ١٩٢٢م، ص١٤٣ عن فاتن عز الدين،المرجع نفسه، ص١٩٨.

(٣) ياقوت الحموى، معجم البلدان، سنة ١٨٦٦م، ص٣٦١ عن فاتن عز الدين، المرجع نفسه، ص٣٦١.

* إهمال تطهير الترع والقناطر والخلجان من الطمى والنباتات العالقة، التى تحول دون جريان الماء، أو تقلل من سرعته، إذ عن طريق هذه الشبكة من الترع والخلجان كانت تروى الأراضى الزراعية القريبة من مجرى النهر والبعيدة[1]

---

(١) مجدى عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م، ص ص١٧٦-١٧٧.

العامل الثانى: الأوبئة وأثرها فى الإنسان والحيوان:

كانت الأوبئة والطواعين كثيرة الحدوث فى مصر الإسلامية، وذلك لتوفر العوامل المهيأة لحدوثها(١) فشهدت البلاد كثيراً من المجاعات والأوبئة التى أودت بحياة الكثير من سكان المدن والقرى على حد سواء(٢)، وأغلب الظن يكون الوباء سبباً فى حدوث المجاعة أو العكس، وربما يواكب كل منهما الآخر، ... فقد تتسبب المجاعة فى موت الكثير، ثم ينتشر الوباء نتيجة لذلك، وقد يأتى الوباء ليقضى على أعداد كبيرة من السكان بحيث لا تجد الأرض من يزرعها، وتكون النتيجة أن تنشب المجاعة مخالبها فى البلاد من جديد، وهو ما عبر عنه المقريزى بقوله "إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين"(٣)

هذا وقد كان حدوث المجاعة أو الوباء أو الاثنين معاً كان يعطى صورة قاتمة للحياة الاقتصادية، والاجتماعية فى مصر خلال فترة عصورها الوسطى(٤)

وهناك من المؤرخين من ذكر الأسباب التى تؤدى إلى حدوث الوباء والطاعون فقال وهناك من المؤرخين من ذكر الأسباب التى تؤدى إلى حدوث الوباء والطاعون فقال "إن أرض مصر ذات أربعة أجزاء، الفسطاط، القاهرة، الجزيرة، الجيزة، وبُعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة، والجبل المقطم فى شرقيها وبينها وبين مقابر المدينة، وقال الأطباء إن أردأ المواضع ما كان الجبل فى شرقية يعوق الصناعة، وأعظم أجزائها هو الفسطاط، ويلى الفسطاط من الغرب النيل، وعلى شط النيل الغربى أشجار طوال وقصار وأعظم أجزاء الفسطاط موضع غور يعلوه من المشرق المقطم، ومن الجنوب الشُرف، ومن الشمال الموضع العالى من عمل فوق أعنى الموقف والعسكر وجامع بن طولون، ومتى نظرت إلى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال رأيت وضعها فى غور، وقد بين أبقراط أن المواضع المتسفله أسخن من المواضع المرتفعة وأردأ هواء لاحتقان البخار فيها ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها وأزقة الفسطاط

---

(١) د. محمد بركات البيلى، الأزمات الاقتصادية، ص٢٣.

(٢) د. راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٤٨م، ص٨٠.

(٣) المقريزى، إغاثة الأمة، ص٤١.

(٤) جابر سلامة المصري، الزراعة في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، ص٥٧، هناك ارتباط شديد بين انخفاض النيل من جهة وحدوث المجاعات من جهة ثانية، وبين وقوع الأوبئة والطواعين من جهة ثالثة، راجع: د. حامد زيان، الأزمات الاقتصادية والأوبئة، ص١٩.

وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية، وقد ذكر المقريزى ما قاله "روفس" أنه إذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء فاهرب منها لأنها وبيئة أراد أن البخار لا ينحل منها كما ينبغى لضيق إزلاقة وارتفاع البناء، ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس فى شوارعهم وأزقتهم فتعفن وتخالط عفونتها الهواء ومن شأنهم أيضاً أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها وحزارات كنفهم تصب فيه وربما انقطع جري الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء، وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط وهى أيضاً كثيرة الغبار لسخانة أرضها حتى إنك ترى الهواء فى أيام الصيف كدراً يأخذ بالنفس"[١] نستنتج من الكلام السابق أن ضيق الشوارع والأزقة وما يتخللها من أبنية عالية تسبب الوباء لعدم انحلال البخار عنها بالإضافة إلى موت الكثير من الحيوانات داخل الشوارع والأزقة فتعفن ويخالطها الناس فتسبب لهم الأمراض والأوبئة والطواعين، هذا بالإضافة إلى رمى القطط والكلاب وجيف الحيوانات فى النيل وفضلاتهم، يزيد على ذلك كثرة البخار وسخونة الهواء فى فصل الصيف أليس كل ذلك يسبب حدوث الأوبئة والطواعين وغير ذلك.

هذا وقد كان للوباء[٢] أثر شديد فى حدوث الأزمات الاقتصادية فبمجرد حدوث الوباء ترتفع أسعار المواد الغذائية والأدوية التى تستخدم لعلاج المرضى، وهناك العديد من الأمثلة على الأوبئة فى العصريين الأيوبى والمملوكى البحرى، ففى عام ٥٧٥هـ /١١٧٤م حدث وباء وغلاء هلك فيه عالم عظيم فى الشرق وأعماله[٣] وقد بلغ النيل فى هذا العام ١٧ ذراع و١٧ إصبع[٤] لذلك حدث الوباء والغلاء بارتفاع الأسعار فى كل شئ، وقد فشا الموت بمصر والقاهرة وجميع مناطق مصر عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٤م، ومات من الخلق بالقاهرة ومصر فى أيام قليلة سبعة عشر ألف إنسان[٥] وقد بلغ فيضان النيل فى تلك السنة ١٨ ذراع و ٧ أصابع[٦]

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) قيل أن الوباء رجز أهلك الله به بعض الأمم وقد بقى في الأرض منه شئ يجرى أحياناً، ويذهب أحياناً فالرجز والرجس هنا بمعنى الطاعون وهو إنما يكون عذاباً على الكافر. راجع: زكريا الأنصاري، تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، مخطوط بدار الكتب المصرية، حديث تيمور ١٤١، رقم الميكروفيلم ٢٢٢٧٣، ورقة رقم(٣).

(٣) الدواداري، كنز الدرر، جـ٧، ص٥٨.

(٤) الدوادرى، المصدر السابق، جـ٧، ص٥٨.

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١، ص١٨١، منشورات بيضون.

(٦) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٧.

وفى عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م، وقع وباء بأرض مصر وفشا فى الناس موت الفجأة[١] وكان قياس النيل فى ذلك العام ١٧ ذراع وإصبع[٢]، وفى عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م كثرت الأراجيف بالقاهرة ومصر وعظمت الشناعات وارتفعت الأسعار[٣]، وفى عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، حصل جوع شديد فى هذه السنة عم الخلق فى القرى والأرياف فتركوا بلادهم وانتقلوا إلى القاهرة ودخل فصل الربيع فهب هواء تبعة وباء وفناء وعدم القوت حتى أكل الناس أطفالهم[٤] واشتد الأمر على الناس لقلة الخبز فى الأسواق[٥] وكان قياس النيل فى ذلك العام ١٦ ذراع و ٢٢ إصبع[٦]، وكان لهذا الوباء أثر فى حدوث أزمة اقتصادية شنيعة حيث أن هذه السنة كان أهل القرى قد فنوا، وقد ذُكر أن الله تعالى لما أغاث الخلق بالنيل لم يوجد أُحد يحرث ولا يزرع فخرج الأجناد بغلمانهم وتولوا ذلك بأنفسهم، ومع ذلك لم يزرع أكثر البلاد لعدم الفلاحين والحيوانات[٧] كل هذا لقصور مياه النيل التى لم تعد كافية لرى البلاد.

وقد وقعت العديد من الأوبئة الكثيرة التى كان لها أكبر الأثر على أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وتسببت فى اشتداد الأزمة الاقتصادية، ففى عام ٥٩٢هـ / ١١٩٥م، كثر الوباء وغلت الأسعار[٨] وكان النيل فى تلك السنة ١٧ ذراع و ١٨ إصبع[٩] وهذا الوباء كان سببه مياه النيل الذى قيل عنها أنها سببت حدوث اللجة الكبرى[١٠] وقد كان للأزمة الاقتصادية (٥٩٦- ٥٩٧هـ / ١١٩٩-١٢٠٠م) نتيجة لنقص فيضان النيل والذى لم يبلغ إلا ١٣

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٢٠٤، منشورات بيضون.

(٢) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٧.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١١١.

(٤) على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٧، ص١٨ ، جـ٢٠، ص١٣٦.

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١٢١.

(٦) الدوادارى، كنز الدرر، جـ٧، ص١٢٣ ، ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٣٦ ، أمين سامي، تقويم النيل، ص٧.

(٧) على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٧، ص١٩.

(٨) النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٤٥٢.

(٩) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٧.

(١٠) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ص ٦٠-٦١.

ذراع فوقع الوباء[١] والفناء الكبير[٢] وقد كان نتيجتها اشتداد الغلاء[٣]، وموت الناس فى شوارع القاهرة، فقد خلت القاهرة ومصر من أكثر أهلها، وصار من يموت لا يجد من يواريه فيصير عدة أشهر حتى يُبلى وتشم رائحته فيصاب الناس بالوباء، وفى هذا العام هاجر إلى القاهرة خلق كثير من أهل القرى، فلما حلت الشمس برج الحمل تحرك الهواء أعقبه وباء وكثر الجوع، وعدم القوت[٤] ويذكر صاحب شذرات الذهب أنه مات ثلاثة أرباع أهل الإقليم لما أبعد[٥] فامتد ما حدث لمدة ثلاث سنين، فكان بلاءاً شنيعاً حتى بلغ عدة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين إنسان[٦]، وحدث الوباء العظيم الذى كان له أكبر الأثر على حياة الناس بمصر[٧] وذلك فى ٦٣٢-٦٣٣هـ/ ١٢٣٤-١٢٣٥م. ففى عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م، مات فى شهر واحد ما يزيد عن ثلاثون ألف إنسان[٨] وبلغ النيل فى ذلك العام ١٦ ذراع و ١٣ إصبع[٩] معنى ذلك إنها لم تكن كافية لرى أراضى البلاد.

وكانت الطامة الكبرى والطاعون العظيم بمصر[١٠] وقراها عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، مات فيه خلق كثير[١١] من أهلها حتى تجاوز الحد[١٢] وقد ذكر كلاً من المقريزى، النويرى أنه فى عام

---

(١) ابن الجوزى: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاؤغلى التركي المشهور بسبط بن الجوزى، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢م، جـ١، ق٢، ص٤٧١.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٣٥ ، يسرى أحمد عبد الله عبد الرحمن زيدان، الفقهاء والعامة في مصر والشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، سنة ١٩٩٦م، ص٤٨٨.

(٣) ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ١، ق٢، ص٤٧٧ ، الدوادراى، كنز الدرر، جـ٨، ص٣٤٨ ، ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، سنة ١٩٥٣م، جـ٣،ص١٢٧.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص ص١٥٧-١٥٨ ، ابن الأثير: أبى الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، جـ٩، ص٢٥٥.

(٥) الحنبلى: أبي الفلاح بن عبد الحى بن العماد الحنبلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، سنة ١٣٥٠م، جـ٤ ص٣٢٨ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٨.

(٦) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٣٧٣، منشورات بيضون ،المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٣٥، بالإضافة إلى وقوع الوباء بالقاهرة ومصر فقد وقع الوباء أيضاً بالفيوم والغربية ودمياط والإسكندرية موتان عظيم ووباء شديد. راجع: عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار، ص٧١.

(٧) السيوطى ، حسن المحاضرة، جـ٢ن ص١٥٩.

(٨) ابن تغرد بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٨٧.

(٩) الدواداري، كنز الدرر، جـ٧، ص٣١٣ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٩٢.

(١٠) زكريا الأنصاري، تحفة الراغبين، مخطوط بدار الكتب، ورقة ٣٠.

(١١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص٢٥٠.

(١٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٩٣.

٦٣٣هـ / ١٢٣٥م، استمر الوباء بمصر مدة ثلاثة أشهر[١] إلى جانب العديد والعديد ممن مات بالريف[٢] وقد كان النيل فى هذا الوقت على ١٧ ذراع و ٢ إصبع[٣] وقيل أن مصر كان بها تسعمائة منسج للحصر فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً[٤] هذا وإن دل فإنه يدل على شدة ما فعله الوباء بأهل مصر.

أما الأوبئة التى حدثت فى عصر المماليك البحرية فقد تعدد حدوث تلك الأوبئة فى ذلك العصر، ففى عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م حدث طاعون، والدليل على ذلك ما ذكره ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور أنه فى سنة تسع وأربعين وستمائة توفى الشيخ كمال الدين الإدفوى المؤرخ وقد مات بالطاعون[٥]، وفى عهد سلطنة العادل كتبغا[٦] قاسى الناس شدائد عظيمة فى عام ٦٩٤-٦٩٥هـ/ ١٢٩٤م[٧] حيث حدث الغلاء والفناء بمصر[٨] وكثر الوباء فى الناس[٩] وقد ذكر المقريزى أن سبب هذا الوباء أن أهل برقة حصل عندهم غلاء عظيم وجراد كثير، فانحدر منهم إلى الديار المصرية أعداد جمة بلغت خمسين ألف وإلى بلاد الشام اثنين وثمانين ألفا، فصادفوا البلاد

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص٢٥٠ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢١١.

(٢) المقريزى، المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٣) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٦، ص٢٩٦ ، أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٨.

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١ص٢٩٠، ولم يذكر أسباب حدوث هذا الطاعون، ذكر السيوطى أن عام ٦٤٣هـ وقد وقع الغلاء بمصر وقاسى أهلها شدائد وهو الوحيد الذي ذكر هذه الحادثة. راجع السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢،ص١٥٩. وقد كان النيل في هذا الوقت ١٤ ذراع. راجع: أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٨، وربما يرجع القحط والشدائد والغلاء نظراً لنقص مياه النيل عن حد الوفاء فشرقت البلاد وحدث الغلاء والوباء.

(٦) السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى هو أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، تولى الحكم سنة أربع وتسعين، وتلقب بالملك العادل وكانت أيامه شر أيام لما فيها من قصور النيل، وغلاء الأسعار، وكثرة الوباء وقدوم الأويراتية. راجع: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٣٩، د. قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص٥٥ ، د. قاسم عبده، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ص٢٥٥-٢٥٦، السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة إلى العربية، محمود عابدين وسليم حسن، جـ١، سنة ١٩٢٤م، ص ص٦٦-٦٧ ، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية سنة ١٩٩٩م، ص٢٤٠.

(٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٧١ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص٢٨٦.

(٨) ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه: د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م، جـ١، ص١٨٤ ، بيبرس الدوادار، زبده الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيده محمد عطا، جـ٩، ص ص٢٨٦-٢٨٧.

(٩) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٣٩ ، السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ص٦٦-٦٧.

وقد حصل الغلاء فهلكوا وأهلكوا[١] إلى جانب قدوم الأويراتية[٢] وقد كان النيل فى ذلك العام ٦٩٤هـ ، ١٦ ذراع و ١٧ إصبع[٣] وعام ٦٩٥هـ /١٢٩٥م، ١٨ ذراع وإصبع[٤] لذلك حدث الغلاء والوباء والفناء.

وقد كانت الأموات مطروحة فى الأزقة والشوارع ملقاة فى الممرات ولا يوجد من يدفنها وذلك لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقماء بمرضاهم[٥] فمُنى الخلق بالطامة[٦] ونتج عن ذلك انتشار الوباء[٧]، ومن الواضح أن السبب فى تفاقم تلك الأزمة هو توقف نهر النيل عن الزيادة ١٧ ذراع و ١٦ إصبع كما سبق أن ذكرنا فازداد الأمر سوءاً على أهل مصر فعاشوا فى قحط شديد ووباء مفرط[٨] إلى جانب هبوب الرياح السوداء التى أثرت على الإنسان وغيره[٩] ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، هذا إلى جانب سياسة الحكام الخاطئة التى كانت تتسبب فى خلق مثل هذه الأزمات[١٠] والدليل على ذلك أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون كان قد فرق المخزون من الغلال على الأمراء قبل موته فلما قصر النيل عن الوفاء، اشترى الوزير الغلال الموجودة فى الأسواق لسد حاجة السلطان ومماليكه وهذا ما يوضح أن الحكام كانوا يتسببون فى وجود الأزمات[١١]

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣، حاشية (١) ص٨٠٩.

(٢) الأويراتية نسبة إلى أويرات، وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من حوض نهر بيسنى بأواسط أسيا وفدوا من بلاد التتار خوفاً من الملك غزان إلى بلاد الإسلام وصحبهم مقدمهم طرغاى وهو من أكابر أمراء المغول وكانوا نحو عشرة آلاف نفر، فأكرموا وأعطوا الإقطاعات واستقر أمرهم، لمزيد من التفاصيل راجع: ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص١٨٥ ، المقريزى، السلوك، جـ١، حاشية (٣) ص٧٠٨، عن تذكرة النبيه، جـ١، حاشية (٢) ص١٨٥ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ص٢٩٦ – ٢٩٧.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٧٨ ، أمين سامي، تقويم النيل، ص٨.

(٤) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٨، ص٨٤ ، أمين سامي، تقويم النيل، ص٨.

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣، ص٨٠٩ ، بدر الدين محمود العينى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه د. محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٠م ، جـ٣، ص٢٧٦ ، بيبرس الدوادارى، زبده الفكرة، تحقيق د. زبيده عطا، جـ٩، ص ص٢٨٦ – ٢٨٧.

(٦) العينى، المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٧٥.

(٧) د. قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص٦٣.

(٨) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦١.

(٩) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جـ٢، ص٧٩.

(١٠) د. قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، الطبعة الثانية، دار المعارف سنة ١٩٨٣م، ص١٤٥.

(١١) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

واستهل عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م، والناس فى مصر فى قحط شديد ووباء مفرط[١] وكان يموت كل يوم بالآلاف، حتى أنه أخرج فى اليوم الواحد ألف وخمسمائة جنازة[٢] فقد كان هذا الطاعون سبب فى فناء ثلث أهل مصر[٣] فى الوقت الذى أثرت فيه هبوب الرياح السوداء المظلمة على الإنسان والزرع، والتى تبعتها حمى عمت الناس، فغلت الأسعار خاصة أسعار الدواء الذى يحتاج إليه المرضى وعدمت الفواكه[٤] وقاسى الناس الشدائد فى هذه السنة والسنة الماضية[٥] حتى قيل أن هذا الغلاء ما عهد ذلك الجيل مثله[٦]، وشهد عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م، حدوث وباء أخر حيث عم ذلك الوباء وانتشر[٧] وفشت الأمراض الحادة فى الناس، وطلب الناس الدواء والأطباء، وندر ما يحتاج إليه المرضى[٨] وكان قياس النيل فى هذا الوقت يقف عند ١٦ ذراع و ٢ إصبع[٩] وأخذ فى الهبوط والنقص مدة غير قليلة وكان قياس النيل بعد هبوطه ونقصه ١٥ ذراع و ١٧ إصبع فشرقت البلاد ووقع الوباء والغلاء[١٠] وذلك بسبب نقص ماء النيل.

هذا وقد فشت الأمراض والأوبئة فى سنوات مختلفة ولكن كان تأثيرها بسيط وقليل ولم يكن لها التأثير السابق والفعال التى أحدثته الأوبئة فى السنوات السابقة.

فقد ذكر المقريزى عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م، أن المرض انتشر بصورة كبيرة وفشا فى الناس بالشام ومصر والصعيد وكثر الموت حتى أن السلطان مرض لمدة ثمانية عشر يوماً وعوفى[١١] وكان النيل فى هذا العام ١٨ ذراع و ١٩ إصبع[١٢] ويحدثنا صاحب كنز الدرر أن هناك وباء

(١) السيوطى، المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٢) الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٥، ص٤٢٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٧، ص١٩.

(٥) بن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٨، ص٧٩.

(٦) الدوادارى، كنز الدرر، جـ٨، ص٣٦٣.

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٤١.

(٨) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق١، ص٥٥ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٧٩.

(٩) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٨، ص٢٨٢.

(١٠) ابن إياس، نبذة من نشق الأزهار، ص ص٨٣-٨٤.

(١١) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق١، ص٢٥٧.

(١٢) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٨.

يسير[1] وقع فى مصر وذلك عام ٧٣١هـ / ١٣٣٠م، وكان النيل ١٦ ذراع و ٢٢ إصبع[2] ومرة أخرى وقع الفناء والغلاء بمصر عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، واستمر هذا الطاعون مدة أربعة أشهر، ومات من الناس ما لا يحصى عدداً، ووقع الغلاء عقب هذا الفناء[3] وشهدت البلاد فى عصر أولاد الناصر محمد بن قلاوون كارثة لا نظير لها، كان لها أكبر الأثر فى زيادة منحنى التدهور فى دولة سلاطين المماليك[4].

وقد شهدت مصر أكبر وباء عرفه التاريخ وذلك عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، وزادت حدته فى عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، حيث ذكر أنه حدث الوباء العظيم فى هذه السنة والطاعون العام بمصر وغيرها[5] وقد كان هذا الوباء شديد للغاية[6] ولم يقتصر هذا الوباء على الإنسان فقط بل شمل جميع مخلوقات الأرض، فمع شدة الوباء عام ٧٤٩هـ، عم الغلاء الدنيا جميعها ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، جميع أجناس بنى آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر[7] وقاسى الناس فيها شدائد عظيمة، وتوفى بها جماعة كثيرة من الأعيان [8]

هذا وقد عرف المؤرخون العرب[9] هذا الوباء الذى طبق الأرض[10] وقبر الملايين وهو سائر فى

(١) الدواداري، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٥٨.

(٢) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص٤٧١-٤٧٢.

(٤) د. قاسم عبده قاسم، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٥٩.

(٥) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣١٧ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٤ ، الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٦، ص١٥٨.

(٦) زكريا الأنصاري، تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، مخطوط بدار الكتب، ورقة ٣١.

(٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٩٥ ، حامد زيان غانم، الأزمات الاقتصادية والأوبئة، ص٤٣ ، د. على السيد على محمود، الفناء الكبير والموت الأسود في القرن الـ ١٤م، دراسة مقارنة بين الشرق والغرب، المجلة التاريخية المصرية، سنة ١٩٨٦م، مجلد ٣٣، ص١٤٩.

(٨) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٥٢٣.

(٩) المقريزى، إغاثة الأمة، ص ص٣٧-٣٨ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ص٢٩٧ - ٢٩٨ ، الدواداري، كنز الدرر، جـ٩، ص ص ٣٥٨-٣٨٩ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٢٠٤ د. قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ص١٤٩-١٥١.

(١٠) يوسف الملواني، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، مخطوط بدار الكتب المصرية، تاريخ ٥٦٢٣، ميكروفيلم ٣٦٤٢١، ورقة ٤٤.

طريقة من الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض المتوسط[١] باسم "الفناء الكبير"[٢] بينما أطلق عليه مؤرخو أوربا اسم "الموت الأسود"[٣] أو Black death وكان طبيعياً أن يصحب هذا الوباء الرهيب مجاعة استمر أثرها قائماً حتى عام ٧٥١-٧٥٢هـ / ١٣٤٩-١٣٥٠م، هذا وقد اشتدت الأزمة على الناس بسبب هبوط النيل الذى بلغ ١٦ ذراع و ٢٣ إصبع[٤] وذلك عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م، أما عام ٧٥١هـ / ١٣٤٩م بلغ ١٧ ذراع[٥]، وتناقص عدد الفلاحين بطريقة رهيبة بسبب الوباء الأسود الذى قضى على عدد كبير منهم مما سبب استمرار الاضطراب الاقتصادى فى مصر فترة غير يسيرة[٦].

فنودى أن يجتمع الناس بعامة الجوامع فى مصر والقاهرة وخرج المصريون إلى القرافة ليصلوا بها واستمرت العامة فى قراءة البخارى بالجامع الأزهر وغيره عدة أيام، ويدعون إلى الله تعالى ويقنتون فى صلواتهم[٧]، وكان بداية هذا الوباء أيام التخضير، فعندما جاء ميعاد الحصاد كان قد فنى الفلاحين ولم يبق منهم إلا القليل، فخرج الأجناد بغلمانهم للحصاد، ونادوا من يحصد يأخذ نصف ما حصد، فلم يجدوا واحداً، ودرسوا غلالهم وهم يركبون الخيول، وذروها بأيديهم

---

(١) السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص١٠١.

(٢) يوسف الملواني، تحفة الأحباب، مخطوط، ورقة ٤٤ لمزيد من التفاصيل راجع:

Wiet,....(G).....Le grande peste noire en syrie et en Egypte, dans etuds d' orientalisme de dois a la memoire de levi- provencal paris, 1962, I , PP 367-384.

(٣) تتحدث المراجع الأوربية الخاصة عن هذا الوباء الذي وصل لأوربا، أهمها في قائمة المؤلفات المعاصرة كتاب ليالى ديكاميرون، وهو الكتاب الذي ألفه بوكاشيو الفلورنسي، ووصف فيه تجارب فئة من الفلورنسيين أيام هذا الوباء الأسود، ويلى ذلك عدد من المقالات أحصاها المؤلف الألماني الحديث (Kohl) في قائمة المراجع بكتابة الذي عنوانه "الوباء الأسود"ومن هذا الكتاب الحديث وغيره من الكتب الأوربية المكتوبة في أسلوب تاريخي منير يتضح أن هذا امتد كما ورد في المراجع العربية من بلاد الصين وتركستان عبر طرق التجارة الأسيوية البرية إلى أوربا والشرق الأدنى في العصور الوسطى، فانتقل من آسيا الصغرى إلى إيطاليا وأسبانيا عن طريق مرسيليا، ودخل انجلترا عن طريق مقاطعة دور تشستر ثم تحول شرقاً فاجتاز ألمانيا وبلاد شبه جزيرة اسكنديناوة، ومنها اشتعل في بولنده والنمسا وروسيا.

لمزيد من التفاصيل: راجع: د. محمد مصطفى زيادة، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، التاريخ والآثار (الحلقة الدراسية الأولى ٤-٩ فبراير سنة ١٩٦١م، ص ص١٥٩-١٦٠.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٢٤٣ ، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص٦٠.

(٥) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ١٠، ص٢٥٠.

(٦) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص٥٦ ، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٦١، سمى هذا الطاعون بطاعون الأنساب لأنه قلما مات به شخص إلا وتبعه أحد من أولاده وأقربائه وذوى رحمة وهلك الناس: راجع: ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٣، ص ص١١٠-١١١.

(٧) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١٠، ص ص٢٠٤-٢٠٥.

وعجزوا عن غالب الزرع فتركوه[1] وعندما أقفرت المدن وخلت من الناس، هرب السلطان ومن استطاع اللحاق به إلى سرياقوس وأصبحت الأملاك تنتقل بطريقة الوراثة...... واستولى كثيرون من العامة على إقطاعات أجناد الحلقة[2]

وقد ذكر المقريزى فى خططه أن "زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وهى طغاى الخوند الكبرى وأم ابنه الأمير أنوك كانت قد توفيت فى شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعمائة أيام الوباء"[3] ومن المحتمل أن يكون سبب حدوث هذا الوباء هو ما حدث فى ولاية الأمير منجبك مدبر أمور المملكة[4] واشتداد جوره وظلمه وفساده هو وأخيه، بالإضافة إلى تخريب الأملاك على النيل واحتراق أماكن كثيرة بالقاهرة ومصر وخروج العربان عن الطاعة، إلى جانب شراقى البلاد، وتلف الجسور[5].

ويبدو أن الفترة من عام ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م حتى عام ٧٨٣هـ / ١٣٨١م كانت مؤلمة فى تاريخ مصر بسبب تكرار انتشار الأوبئة، إذ لم يكن ينتهى وباء حتى يبدأ وباء آخر، بالإضافة إلى تزايد الأمراض بالقاهرة والوجه البحرى، هذا مما كان سبب فى حدوث الأزمات الاقتصادية المتكررة والتى سببت اضطراب الأحوال وحدوث الخلل فى الديار المصرية، ففى عام ٧٥٥-٧٦٢هـ / ١٣٥٤-١٣٦٠م ، وبالتحديد عام ٧٦١هـ / ١٣٥٩م فى سلطنة الناصر حسن الثانية، وقع وباء بالديار المصرية[6] واستمر حتى أوائل عام ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، وتوفى فى هذا الوباء عدد كبير من الأعيان وغيرهم[7] وكانت مدة المرض من ٤ إلى ٥ أيام، ومن جاوز تلك المدة يطول مرضه، وهذا الوباء يقال له الوباء الوسط (أعنى بين وبائيين)[8] هلك به خلق كثير[9]

---

(١)ابن تغرى بردى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٠٩.

(٢)د. قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص٥٦.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٢٥.

(٤) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١٠، ص١٩٥.

(٥) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جـ١٠، ص٢٣٢ ص٢٣٣.

(٦) حامد زيان، الأزمات الاقتصادية والأوبئة، ص٤٨ ، زكريا الأنصاري، تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، ورقة ٣٢.

(٧) حامد زيان، الأزمات الاقتصادية والأوبئة، ص٤٨.

(٨) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١٠، ص٣١١.

(٩) العلامة شهاب الدين أحمد السلامى، كتاب مختصر التواريخ، مخطوط بدار الكتب المصرية، تاريخ ١٤٣٥، ميكروفيلم ١٨٤٦٤، ورقة ٦٨.

أكثرهم الأطفال والنساء[١] ويقال أن السلطان هرب من هذا الوباء الذى شاع فى جميع أنحاء البلد فقد عدّى إلى بر الجيزة وأقام بناحية كوم برا[٢] مدة طويلة نتيجة لحدوث هذا الوباء[٣]

وقد كان نهر النيل يبلغ فى هذا الوقت ٢٤ ذراع[٤] ومعنى ذلك أن حدث فيضان بل طوفان تعرضت فيه البلاد والعباد للغرق وفساد وتلف الزرع.

وفى السنة الثالثة من سلطنة الملك المنصور محمد (حفيد الناصر محمد) على مصر حدث الطاعون بالديار المصرية عام ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م[٥] ومات فيه خلق كثير[٦] وهلك فيه ما لا يحصى[٧] وكان مقياس النيل فى ذلك العام ١٧ ذراع و ٤ أصابع[٨] وقد هجم الطاعون على مصر[٩] عام ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م، ومات ما لا يحصى من أطفال ومماليك وعبيد وجوارى... فكان يخرج من القاهرة فى كل يوم فوق اثنى عشر ألف جنازة[١٠] وكان النيل فى هذا الوقت على ١٨ ذراع[١١] وفى عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م حدث وباء فكثر الموت، ومُنى الناس بأمراض حادة[١٢] كان قياس النيل ١٧ ذراع و ٤ أصابع[١٣]

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٦١٢ ، العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص١٢٠.

(٢) بفتح أوله ويروى بالضم وأصله الرمل المشرف وقال ابن شميل: الكومه تراب مجتمع طوله في السماء ذراعان ويكون من الحجارة والرمل والجمع كوم، وهو اسم لمواضع بمصر تضاف إلى أربابها أو إلى شئ عرفت به: راجع: ياقوت الحموى: الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبد الله يا قوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادي، معجم البلدان، المجلد الرابع، دار بيروت، دار صادر، بيروت سنة ١٩٥٧م ، ص٤٩٥، وعند الرجوع إلى محمد رمزى، القاموس الجغرافى أحال كوم برا إلى كومبره بمركز إمبابة: راجع: محمد رمزى، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، ق١، البلاد المندرسة، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٥٣-١٩٥٤م.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣١٧ ، قيل أن السلطان قضى بها ثلاثة أشهر مقيماً بها في أرغد عيش والقاهرة بها أوخام ووباء مع أمراض شديدة بالناس: راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٥٧٣.

(٤) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١٠، ص٣٣٨ ، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص٦٠.

(٥)حامد زيان، المرجع السابق، ص٤٨.

(٦) ابن تغرى بردى، نفسه، جـ١١، ص١٧.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٥٩٢.

(٨) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١١، ص٢٣.

(٩) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢،ص١٦٤.

(١٠) ابن إياس، المصدر نفسه، جـ١، ق٢، ص ص٦٥-٦٦.

(١١) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١١، ص١٠٤.

(١٢) ابن إياس،المصدر نفسه، جـ١، ق٢، ص١٠١.

(١٣) أمين سامي، تقويم النيل، جـ١، ص٩.

وفى عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، فشت الأوبئة فى بلاد الوجه البحرى[١] وذلك نتيجة نقص مياه النيل التى وصلت إلى ١٥ ذراع و ١٩ إصبع[٢] فحدث الوباء والغلاء وتزايد الأسعار[٣] وعندما جاءت سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م، حدث الوباء بعد الغلاء فخرب الكثير ممن كان عامراً بديار مصر[٤] فانتشر الخراب انتشاراً عظيماً وشرع الناس فى هدم البيوت والدور حتى صارت تلالاً[٥]، وقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة أن الفناء وقع بمصر من نصف جماد الآخر وتزايد فى شعبان، ثم فى شهر رمضان حتى صار يموت الآلاف بالديار المصرية من الناس[٦] وكثر موت الفقراء من شدة الجوع، فكان يخرج من القاهرة فى كل يوم ستمائة جنازة[٧] وكان النيل فى هذا الوقت على ١٧ ذراع و ٥ أصابع[٨] فشرقت البلاد، وهذا إن دل فإنه يدل على أن الـ ١٧ ذراع لم تكن كافية لرى حتى ربع البلاد، فحدثت معظم الأوبئة بسبب ذلك الانخفاض، وفشت الأمراض، وتزايد الوباء والطاعون فى الناس فى أعوام ٧٧٨- ٧٧٩هـ/ ١٣٧٦- ١٣٧٧م[٩] وفى عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م حدث وباء عظيم بالقاهرة[١٠] مات فيه خلق كثير جداً[١١] وجاءت الأخبار من الإسكندرية بظهور الطاعون بها[١٢] ومات به كثير من الأطفال وغير ذلك ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م، وكان النيل قد بلغ ١٧ ذراع و ٤ أصابع[١٣]

ومرة أخرى يختتم عصر المماليك البحرية بطاعون وقع بالديار المصرية[١٤] عام ٧٨٣هـ /١٣٨١م، فاجتمع الوباء والغلاء واشتد الأمر، وأشيع أن السلطان الملك المنصور. على ابن

---

(١) ابن إياس، المصدر السابق، ص١٣٢.

(٢) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ص١٢٩.

(٣) حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص٤٩.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣٣٩.

(٥) على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١، ص١٩.

(٦) ابن تغرى بردى، نفسه، جـ١١، ص٦٦.

(٧) ابن إياس، المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٨) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١١، ص١٣٥ ، ابن إياس بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص١٣٦.

(٩) ابن إياس، المصدر نفسه،، جـ١، ق٢، ص ص١٦١-١٦٨.

(١٠) زكريا الأنصاري، تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، ورقة ٣٢.

(١١) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ١١، ص٢٠٢.

(١٢) ابن إياس، المصدر نفسه، جـ١، ق٢، ص٢٧٦.

(١٣) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، جـ١١، ص٢٠٦.

(١٤) ابن قاضى شهبة: تقى الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضى شهبة الأسدى الدمشقى، تاريخ ابن قاضى شهبة، حققه: عدنان درويش، دمشق سنة ١٩٧٧م، جـ٣، ص٥٦، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٦.

الأشرف شعبان قد طعن، فأرجف بموته، واضطربت القاهرة بسبب ذلك[(١)] وكان النيل فى هذا العام ١٩ ذراع و ١٢ إصبع[(٢)]

هكذا انتهى عصر المماليك البحرية الذى شهد الكثير والكثير فى سنوات مختلفة العديد من الأوبئة والمجاعات التى أودت بحياة الملايين من البشر وتسبب فى ذلك اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية، والاجتماعية فى ذلك العصر، وكان من السهل أن يؤدى وقوعها إلى حدوث الأزمات الاقتصادية.

هكذا نجد أن فيضان النيل كان سبباً أساسياً فى حدوث الأزمات الاقتصادية والوباء والغلاء إلى جانب عوامل مختلفة بشرية ساندت العوامل الطبيعية جنباً إلى جنب مع بعضها البعض فأدت إلى حدوث تلك الأزمات التى سوف نذكرها فى حينها.

الأوبئة فى الحيوانات:

من أهم العوامل الطبيعية المسببة للأزمات الاقتصادية فى مصر هو طاعون الحيوانات (الماشية)[(٣)] الذى كان يؤدى إلى موت الحيوانات، فتنقص أعدادها نقصاً فاحشاً يضر بالحالة الاقتصادية فى مصر ضرراً عظيماً[(٤)] إذ تتعطل عمليات الزراعة التى تعتمد على الماشية اعتماداً رئيسياً[(٥)] مما يؤدى إلى عجز الفلاح عن مواصلة العمل كما يجب، وذلك فى عصر كانت فيه الحيوانات تساعد الفلاح فى الحقل[(٦)] بصورة أساسية هذا وقد كان النيل أيضاً من أسباب فناء الحيوانات، فقد كان نتيجة لزيادة النيل المفرطة التى تصل إلى درجة الاستبحار مما يؤدى إلى فساد المراعى وقلة الأعلاف[(٧)] وعند ما تموت تلك الحيوانات كانت تتوقف أعمال الجسور وأعمال الرى، مما يؤدى إلى توقف سائر مصالح البلاد[(٨)] لأن تلك الحيوانات كانت هى المعتمد

---

(١) ابن قاضى شهبة، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٦.

(٢) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ١١، ص٢٢١.

(٣) د. راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية، ص ص٧٩-٨٠.

(٤) د. راشد البراوى، المرجع السابق، ص ص٧٩-٨٠.

(٥) محمد بركات البيلى، الأزمات الاقتصادية، ص٢١.

(٦) راشد البراوى، المرجع نفسه، ص ص٧٩-٨٠.

(٧) محمد بركات البيلى، المرجع نفسه، ص٢٢.

(٨) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص٦٠.

عليها فى ذلك العصر لبناء الجسور وسائر أعمال ضبط النهر[1] هذا وعند حدوث وباء للحيوانات، فيؤدى ذلك إلى حدوث أزمة اقتصادية لارتفاع أسعارها وأسعار اللحوم، ففى عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، وقعت الآفة فى البقر والجمال والحمير فهلك منها الكثير[2] حتى بيعت البقرة بـ٧٠ ديناراً[3] وشنع موت الأبقار بأرض مصر حتى أن شخصاً كان له ثلاثمائة وأربعين رأساً ماتوا بأجمعهم فى نحو شهر، وارتفع سعر البقر بزيادة ثلث أثمانها[4] بالإضافة إلى هلاك معظم الدواب عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، وذلك لعدم العلف حتى لم توجد دابة للكراء، وهلكت الكلاب والقطط من الجوع[5]، وكان هناك من السلاطين من حرص على الإكثار من الثروة الحيوانية، ومن أشهرهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولزيادة الثروة الحيوانية قام ببناء حظيرة إلى جانب قلعة الجبل وعمل على توصيل المياه إليها وكان يجلب إليها أفضل أنواع الدواجن والمواشى، وذلك من مراعى عيذاب وقوص وبلاد اليمن[6] بالإضافة إلى أنه كان يوجد ببلاد الصعيد كثير من الأغنام والأبقار والجاموس التى كانت تعتبر المخزون الأساس للبلاد[7]

وفى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، ذكر أن أبقار أرض مصر فنيت تماماً، وذلك أنه وقع فيها وباء من أواخر السنة الماضية ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م، وتزايد الأمر حتى تعطلت الدواليب ووقفت أحوال السواقى، وتضرر الناس من ذلك، وقيل أنه كان لرجل ألف وأحد وعشرون رأساً من البقر، مات منها ألف وثلاثة رؤوس، وبقى له ثمانية عشر رأساً لا غير، واضطر الناس لتعويض البقر بالجمال والحمير، وبلغ الثور ألف درهم[8] ونتيجة لذلك كتب الأمراء إلى جميع أنحاء البلاد بأن لا يذبح أحداً شيئاً من البقر ولا من العجول، وكتبوا إلى "سائر البلاد لتجهيز الأبقار من سائر الدواليب السلطانية"[9] وفى عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، كثر الموت فى الخيل فهلك ومات

---

(١) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٦٠.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١١٩، على مبارك، الخطط، جـ٧، ص١٩ ، يسرى زيدان، المرجع السابق، ص٤٨١.

(٣) على مبارك، الخطط، جـ٧، ص١٩.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٣٣.

(٥) المقريزي، المصدر نفسه ، نفس الجزء، ص٨١٤.

(٦) د. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، ص٢٩٤.

(٧) محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص٢٩٤.

(٨) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣، ص ص٩١٣-٩١٤، العيني، عقد الجمان، جـ ٤، ص١٣٧.

(٩) العينى، المصدر نفسه، جـ٤، ص١٣٨.

منها ما لا يُحصى ولا يُعد حتى أنه لم يوجد بمعظم اسطبلات الأمراء والجند منها شئ[1] إلى جانب وصول الوباء من الشام إلى مصر عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م، فمات من الخيول أعداد عظيمة هائلة لا تحصى[2].

وفى عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، حدث الوباء العظيم الذى امتد إلى كل شئ فى الدنيا، وانتشر الفناء فى الأبقار والأغنام والوحوش حتى قيل أنه مات نصف الناس حتى الطيور والوحوش والكلاب[3] ومات من الناس خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى[4] هذا وفى عام ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م، وقع عقب ارتفاع الأسعار الموت فى الأبقار بنواحى مصر وإفريقية[5] "فهلك منها شئ كثير"[6].

الآفات الزراعية:

من أهم العوامل الطبيعية التى كانت تتسبب فى حدوث الأزمات الاقتصادية ما كان يصيب المحاصيل الزراعية من آفات أو رياح عاصفة تعصف بالمزروعات والحاصلات، وتنــزل بهما أكبر الضرر، مما كان يتبع ذلك من ضعف المحصول وقلة الغلال وعدمها، وما كان يترتب عليه من حدوث الأزمة[7].

هذا ومن أهم الأسباب التى أدت إلى فساد الزروع الدود الذى يتولد فى الأرض أثناء انكشافها فى أول فصل الخريف، حيث تحرث الأرض وتعفن لكثرة ما يلقى فيها من البذور وروث الحيوانات، لذلك فإن الفيضان كان حين لا يمكث على الأرض المدة اللازمة ويهبط بسرعة، فإن الزروع تكون فريسة للدود خصوصاً عندما يكون فى الجو بعض الحرارة قبل دخول

---

(١) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص٢٥٦، أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبى الفدا صاحب حماه، المختصر في أخبار البشر، ٤مجلدات في جزء واحد، طـ١، القاهرة سنة ١٩٠٧م، جـ٤، ص٥١.

(٢) العينى، المصدر السابق، جـ٤، ص١٣٨.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٩٥ ، الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٦، ص١٥٨.

(٤) محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى ت سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م، كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: د. عزيز سوريال عطية من مخطوط برلين وبانكى بور، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، جـ٤، ص١٢٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٢.

(٦) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٤.

(٧) د. حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص١٣.

فصل الشتاء وإذا تتبعنا حالات فساد الزروع التى كثرت بسبب الدود، فسنجد أن أهم أسبابها هو سرعة هبوط النيل وسرعة بذر البذور قبل الأوان خصوصاً وقت الحر، وطبيعى أن يكون القمح والبرسيم الذى يزرع فور إنحسار الماء عن الأرض، هما أكثر المحاصيل تعرضاً للفساد بسبب الدود، ولذلك كثيراً ما أعيد بذرة أكثر من مرة حتى عندما كان الزرع ينضج على خير ويحصد فلم تكن العاقبة دائماً حسنة، فربما تعرضت الغلال وبخاصة القمح فى المخازن إلى الفساد بسبب السوس، ولا شك أن أهم أسباب الفناء والفساد فى الزروع هى الفئران بما عرف عنها من شدة إتلافها للزرع وسرعة إهلاكه خصوصاً فى العصور التى لم يكن يعرف فيها المبيدات الحشرية، ولا وسائل المكافحة سواء للفئران أو لغيرها من الآفات مثل السوس والدود والجراد ولذلك أحدثت الفئران فى ذلك العصر الكثير من الكوارث[١] بإفساد الزروع كما سنرى فى الأمثلة القادمة.

ففى عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، اشتد وجود الجراد فيها حيث ذكر أن فيها جراد عظيم[٢] فحدث بعد انتشار الجراد الغلاء والوباء[٣] ويعتبر الجراد من أشد الآفات الزراعية خطورة على المحاصيل الزراعية[٤] إلى جانب انتشار الجراد ظهرت الفئران التى كان لها الأثر العظيم على المحاصيل الزراعية فقد ظهر بالديار المصرية فأر كبير جداً عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م، فقد ذكر النويري نقلاً عن القاضي الفاضل قائلاً "حدثنى من شاهد هذا الفأر وهو يرحل من بقعة إلى أخرى فيغطى الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شئ البتة وأنه شاهده يمر بأماكن فلا يُلّم بها ولا يخرج عليها والزروع بها محصورة، ويمر بأخرى فلا يلبث أن يُفسد جميع ما فيها ولا يرتحل عنها وبها شئ من الزرع ولا المقات بالجملة"[٥]، بالإضافة إلى الجراد والفئران ظهرت الديدان التى كانت هى الأخرى تلتهم الزروع ففى عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، أكل الدود الزرع ولم يمكن زرع غيره[٦] لأن هذه السنة حدث بها وباء ومات فيها الكثير من الخلق من الأرياف، والقرى، والبلدان فحدث لذلك أزمة لعدم وجود من يزرع مرة أخرى، وفى عام

(١) مجدى عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م، ص٢٠٣ ص٢٠٤.

(٢)الدواداري، كنز الدرر، جـ٧، ص٥٨.

(٣)الدواداري، المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٤)محمد بركات البيلى، الأزمات الاقتصادية، ص٢٣.

(٥)النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ص٣٩٦ - ٣٧٠.

(٦)على مبارك، الخطط، جـ٧، ص١٩.

٥٩٧هـ / ١٢٠٠م أكلت الدودة الزرع كله، بالإضافة إلى فناء الكثير من الأبقار والناس، فلم يوجد من التقاوى ولا من العقر ما يمكن به رده[١] ومرة أخرى تظهر الفئران وتكثر بدرجة مخيفة فتتلف المحاصيل وتهدر جانباً كبيراً منها، وبطبيعة الحال كان إتلاف المحاصيل يؤدى إلى ارتفاع الأسعار وظهور الغلاء، بالإضافة إلى أن الفئران تنقل الطاعون وتؤدى إلى التشاره وتفشيه فيهلك الكثير من الناس والماشية فيؤدى إلى حدوث أزمة اقتصادية نتيجة لقلة الأيدى العاملة والماشية[٢]

ففى عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م، ظهرت الفئران بالبلاد المصرية[٣] وذلك بالقرب من وقت الحصاد فأكلت كثيراً من الغلال والزروع، ولم يحصد الفلاحون من الزرع فى هذه السنة إلا القليل[٤] وقد ذُكر أن الفأر كان يسابق الحصادين إلى الزرع[٥] وفى عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٧- ١٢٩٨م، ظهرت الفئران بجميع أنحاء مصر وذلك فى وقت الحصاد، فالتهمت الكثير من الزروع والغلات، فكانت الفئران تهلك فى الليلة الواحدة فى البلد الواحد ما يقارب خمسين ألف أردب[٦] فمُنّى الناس منه بداهية لا ترد وحش لا يصاد ولا يصد وشئ يتجاوز الحد فكان تسابق المزارعين إلى الحصاد فلا يلحقون جمع زروع ولا يستطيعون الفرار ولا الهجوع ولم يتحصل من المغل إلا النزر اليسير[٧]، وخاف الناس من أن تصل الفئران إلى الأشجار وتتلف ثمارها، ولكن الله لطف وأهلكها قبل أن تصل إليها[٨]

وما حدث عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م، يوضح أن الفئران كانت تسبب بحق اضطراب للبلاد والعباد، فقد وقع فى صعيد مصر أنه خرج على الغلال فأر عظيم أكل الغلات وكان خطره فادحاً بدليل ما فعله مباشروا شونة أم القصور بمنفلوط فى الصعيد حيث لم يبيتوا فى

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١٥٨.

(٢) محمد بركات البيلى، المرجع السابق، ص٢٢.

(٣) ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تاريخ بن الفرات، حققه/ د: قسطنطين رزيق، د. نجلا عز الدين، الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٣٩م، مجلد ٨، ص٢٣١.

(٤) العينى، عقد الجمان، جـ٣، ص٣٦٧.

(٥) العينى، المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٦) أحمد محمد عدوان، الوضع الاقتصادي في مصر في عصر الدولة المملوكية الأولى، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٢م، ص١٤١.

(٧) بيبرس المنصورى، زبده الفكرة، تحقيق/ زبيده عطا، جـ٩، ص٣٠١.

(٨) بيبرس المنصورى، المرجع نفسه، نفس الجزء والصفحة.

منازلهم، وقرروا المبيت فى الشونة حتى يستطيعوا قتل الفأر[١] ، هذا وقد هجمت الدودة على المحصولات الزراعية نتيجة لحدوث حر شديد جداً[٢] لم يكن يتوقعه بشر فتلف الزرع والمحصول، وفى عام ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م ظهرت الفئران فى منفلوط ببلاد الصعيد فهجمت على الزروع والجرون الممتلئة بالغلال فكان يأكل ربع الجرن فى ليلة واحدة[٣].

وقوع الزلازل واشتعال الحرائق:

من الأسباب الطبيعية التى ليس للإنسان دخل فى وقوعها هى الزلازل والحرائق فهى ظواهر تحدثها الطبيعة وينتج عنها حدوث أزمات اقتصادية ويؤثر على موارد البلاد الاقتصادية أيضاً ففى العصر الأيوبى وقع الكثير من حوادث الزلازل واشتعال الحرائق، ففى عام ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م وقع فى مصر وبالتحديد فى الصعيد زلزلة هائلة، هدمت من بنيان مصر الكثير، فمات تحت الهدم خلق كثير[٤] وقد حدثت زلزلة أخرى هائلة بديار مصر عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م[٥] وقد عمت هذه الزلزلة الجزء الأكبر من مصر، ووصلت بلاد الشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرص، الموصل والعراق، حتى أنه قيل أنها بلغت سبته من أقصى المغرب[٦] وفى عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م، حدثت زلزلة شديدة خربت على أثرها دوراً كثيرة بمصر والقاهرة ومات خلق تحت الهدم[٧] هذا وقد كثر حدوث الزلازل بأرض مصر[٨] عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م هذا وقد اشتد حدوث الحرائق فى عصر المماليك البحرية، فقد وقع حريق عظيم ببلاد مصر أتهم به النصارى وعاقبهم السلطان عقوبة عظيمة[٩] وذلك عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م، وحدث عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م زلزلة عظمى بمصر وكان تأثيرها بالإسكندرية أعظم من غيرها، وطـلع

---

(١) العينى، عقد الجمان، جـ١، ص ص٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق١، ص٣٠٠.

(٣) عثمان على محمد عطا، الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي الاقتصادي، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص٧٦.

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٩ ، ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ١، ق٢، ص٤٧٧.

(٥) السيوطى، المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٣، ص١٦١.

(٧) السيوطى، المصدر نفسه ، الجزء نفسه والصفحة نفسها .

(٨) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٢٠ ، السيوطى، المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٩) أحمد السلامى، مختصر التواريخ، مخطوط، ورقة ٦٨ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٠.

البحر إلى نصف البلد وأ خذ الجمال والرجال وغرقت المراكب وسقطت بمصر دور لا تحصى وهلك تحت الردم خلق كثير(١)، بالإضافة إلى ذلك فقد تحدث فى سنوات حرائق ولا تحدث فيها زلازل والعكس ففى عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م، وقع حريق عظيم بقلعة الجبل أتلف شيئاً كثيراً من الزخائر والنفائس والكتب(٢) بالإضافة إلى وقوع زلزلة عام ٦٩٣هـ /١٢٩٣(٣) وما حدث عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م، وقعت زلزلة عظيمة بمصر، اهتزت الأرض كلها فى القاهرة ومصر وجميع البلاد المصرية، فسمع لجدران البيوت قعقعة، وللسقوف أصوات شديدة ومات تحت الهدم خلق كثير(٤) وقد كان لهذه الزلزلة أثار ولم يبق مكان فى القاهرة ومصر إلا وفيه بيوت قد سقطت وجدران قد هدمت، وخرب جامع عمرو بن العاص، ومأذنتا جامع الحاكم، حتى جبل المقطم تشقق من هذه الزلزلة(٥) هذا وقد خربت أسوار الإسكندرية حتى قيل أنه ضرب بها ستاً وأربعين بدنه(٦) وكانت هذه الزلزلة واقعة فى قوة الصيف، فجاء بعدها ريح سوداء، مليئة بالسموم، حتى أغمى على الناس منه(٧) ونستطيع القول أن هناك عدة حرائق حدثت فى سنوات مختلفة ٧٢١هـ / ١٣٢١م وعام ،٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م ، ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ، ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م، ولكن كان أشدها خطورة حريق عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م، حيث كان بالقاهرة حريق كبير خارج عن الوصف، ودام أيام وأحرق العديد من الأماكن الشهيرة مثل جامع ابن طولون وما حوله بأسرة، ولكن عرف من هم سبب هذا الحريق، فقد كانوا جماعة من النصارى يعملون قوارير النفط، فقتلوا وأحرقوا ولكن المسلمين هدموا غالب كنائس النصارى بمصر ونهب الباقى، وبقيت القاهرة أياماً لم يظهر فيها أحد من النصارى وبقى لا يظهر نصرانى إلا ضربة العوام وربما قتلوه(٨)، وقد ذكر صاحب تذكرة النبيه "وفيها كان الحريق بالديار المصرية، ذهبت فيه أموال جزيلة، وأملاك كثيرة، وظهر أن ذلك من كيد النصارى"(٩)، بالإضافة إلى حريق آخر كان أشد خطورة وقع عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٨م، حيث وقع حريق عند باب

---

(١) السيوطى، المصدر السابق، جـ٢، ص١٦١.

(٢) المصدر نفسه، نفس الجزء الصفحة.

(٣) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص٢٥٣ ، السيوطى، المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤١٦.

(٥) المصدر نفسه، الجزء نفسه والصفحة نفسها .

(٦) ابن حبيب، المصدر نفسه السابق، والجزء نفسه والصفحة نفسها ، ابن إياس، المصدر نفسه السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٧) ابن إياس، المصدر نفسه، جـ١، ق١، ص٤١٧.

(٨) السيوطى، المصدر نفسه ، جـ٢، ص١٦٣.

(٩) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص١٢١.

زويلة...... ولولا سور القاهرة لاحترق نصف المدينة فى تلك الليلة، فعندما تزايد الأمر ركب جميع الأمراء واجتمعوا هناك من أجل إطفاء النار، وصاروا يهجمون على السقايين فى بيوتهم حتى يأتوا بماء فى القرب وصارت النار لا تزداد إلا اشتعالاً ووهجاً، فأقامت النار تعمل فى البيوت والربوع والدكاكين تلك الليلة وبات الناس على وجل من ذلك، واستمرت النار فى اشتعال لمدة ثلاثة أيام متوالية......[١]

بالإضافة إلى حدوث زلازل ولكنها خفيفة وطفيفة[٢] أعوام ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م، ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م ، ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م ، وكانت أشدها زلزلة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م "عمت الزلزلة العظيمة المزعجة البلاد، وغمت العباد، وحركت الساكن، وخربت الأماكن...... وأمرت الجدران بالركود والسجود وتواترت بعدها الزلازل مدة......[٣]

هبوب الرياح وسقوط الأمطار ومجىء البرد:

لا شك أن من أهم الأسباب الطبيعية التى تؤدى إلى حدوث أزمات اقتصادية، هى الظروف الجوية السيئة التى تتعرض لها المزروعات والمحصولات فتؤدى إلى تلفها، وعدم الاستفادة منها، هذا وقد كانت المزروعات تتعرض لظروف جوية سيئة مرتين فى السنة، إما أن تمر على خير أو أن تكون شديدة فتضر الزرع، وربما قضت عليه، المرة الأولى فى الشتاء وما فيه من الصقيع والبرد الذى يتساقط على الزروع فيتلفها، والمرة الثانية فى الربيع وما يهب فيه من رياح الخماسين المتربة من الغرب والجنوب فتجفف الزرع وتحرقه حتى وإن كان فى الأجران[٤]

وما حدث فى العصر الأيوبى عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦م، ونقله لنا السيوطي أنه ورد كتاب من القاضى الفاضل عن "حدوث ظلمات متكاثفة وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، فقوى أهويتها واشتد هبوبها... وفر الناس نساء ورجالاً وأطفالاً ونفروا من دورهم خفافاً وثقالاً، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فاعتصموا بالمساجد الجامعة... ووردت الأخبار بأنها كسرت المراكب فى البحار، والأشجار فى القفار، واتلفت خلقاً كثيراً من الصغار...... ومنهم من فر فلم ينفعه

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٦٦، ابن إياس، المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٢٢١.

(٢) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٥٦٣ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٤.

(٣) ابن حبيب، المصدر السابق، جـ١، ص٥٨.

(٤) مجدى عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، ص ص٢٠٥ -٢٠٦.

الفرار ، فالأمر أعظم ولكن الله سلم"[1] هذا يدل على أن الرياح العاصفة وهبوبها كان يفتك بالإنسان فما بالك بالمزروعات فقد تلفها وأهلكها ولم يجد الناس ما يقتاتوا عليه، وفى عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م، هبت ريح شديدة بديار مصر هذه الريح أغرقت مائتى مركب فى النيل، وهلك فيها خلق كثير، ووقع مطر شديد جداً، إلى جانب كل هذا حدث للثمار صعقة أهلكتها[2] وكان حدوث ذلك فى عصر المماليك البحرية، وفى عام ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م سقطت أمطار ولكنها كانت على هيئة قطع من الثلج كبير الحجم وانتشر فى جميع بلاد مصر، وكان لسقوطه أكبر الأثر فى حياة الناس فقد عاق الناس عن المشى فى الأزقة والشوارع والطرقات، إلى جانب أنه أتلف الكثير من الغلات[3] وأهلك[4] ما لا يحصى من الزرع الأخضر[5] ووقع معظمه فى الوجه البحرى[6] ووقعت الصاعقة بالإسكندرية[7] وفى عام ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م سقطت قطع من الثلج على إقليم الغربية، ففسدت المحصولات والزرع الذى كان قد اقترب وقت حصاده[8] فضرب كثيراً من الزرع القائم[9]، وكانت أشد حدوث الأزمات الاقتصادية عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م، حيث هبت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوباً عاصفاً، وحملت تراباً أصفر كسا زروع تلك البلاد فهافت كلها ولم يكن بها إذ ذاك إلا زرع قليل، ففسد جميعه، وعمت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية، ومرت إلى الصعيد الأعلى فهاف الزرع وفسد الأرز، السمسم، القلقاس، قصب السكر، وسائر ما يزرع على السواقى فتزايدت الأسعار، وأعقبت تلك الريح أمراض وحميات عمت سائر الناس[10] وفى عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م، هبت فى برمهات الموافق لشهر شوال من جهة الغرب

---

(١) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٧.

(٢) العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص٥١ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٠.

(٣) العينى، المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٥٧.

(٤) عثمان على حسن، المرجع نفسه ، ص٦٩.

(٥) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص٦٠، العينى، المصدر نفسه، حوادث سنة ٦٩٥هـ ، ص٢٥٧.

(٦) الدواداري ،كنز الدرر، جـ٨، ص٢٣٩.

(٧) ابن حبيب، المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٠.

(٨) العينى، المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٦١.

(٩) المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(١٠) المقريزى، إغاثة الأمة، ص٣٣ ،على مبارك، الخطط، جـ٧، ص١٩ ، جـ٢٠، ص١٣٧ العينى، عقد الجمان ، جـ٣، ص ص٢٩٩-٣٠٠، د. على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ط٢، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٩م، ص٤٩٨.

ريح عند إدراك الغلال، فهافت وجف أكثرها، فلم يحصل منها عند الحصاد إلا اليسير[1] فارتفعت الأسعار.

وتعاقب هبوب الرياح فى سنوات ٧١٧هـ / ١٣١٧م، ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م أفسدت الزروع وتلفتها ولم يجد الناس ما يقتاتون عليه وحدث خراب للبلاد، وكان أشدها خطورة ما حدث من هبوبها عام ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م ، ٧٧٠هـ / ١٣٧٧م، فوقعت رياح عاصفة كان لها تأثير شديد على كل شئ[2]، أما عن سقوط الأمطار وحدوث البرق الذى أفزع الناس، فقد حدث وقوع أمطار فى أعوام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م ، ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م ، ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م، ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م ، ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ، ٧٨٣هـ / ١٣٨١م[3].

كل هذه العوامل الطبيعية السابقة أثرت بشكل أو بآخر، ودون تدخل أى شخص فى حدوث الأزمات الاقتصادية، فعندما ينقص ماء النيل أو يزداد تحدث مجاعة يتبعها وباء، فيحدث اضطراب فى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى حدوث الأوبئة والأمراض، وهبوب الرياح وسقوط الأمطار، وفساد الزروع من هجوم الآفات الزراعية عليها من جراد وفئران، وديدان وغير ذلك من العوامل التى تضافرت كلها لتسبب الأزمات، والاضطراب فى كل شئ فى أمور الدولة.

الأسباب البشرية لحدوث الأزمات الاقتصادية:

تضافرت عدة عوامل أثرت بشكل أو بآخر فى حدوث الأزمات الاقتصادية ألا وهى العوامل البشرية فقد تعددت تلك العوامل وتنوعت وكان أولها:

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق١، ص٣٩.

(٢) مزيد من التفاصيل أنظر: الدواداري، كنز الدرر، جـ٩، ص٢٩١ ، المقريزى، السلوك ، جـ٢، ق١، ص٢٥٠ ص٣٠٠ ، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٥٦١ ص٥٦٢ ، جـ١، ق٢، ص٨٦ ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٤.

(٣) ابن إياس،بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٥٦ص٤٥٧، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٣ ، المقريزى، السلوك، جـ٢، ق٢، ص٥١٤ ، ابن قاضى شهبة، جـ٣، ص٦٣.

الفتن والاضطرابات الداخلية: أولاً فى العصر الأيوبى:

لا شك أن الفتن والاضطرابات والمنازعات بين القادة والأمراء والسلاطين لها الدور الأكبر والهام فى حدوث الأزمات الاقتصادية فى أى عصر من العصور، فقد تؤدى كثرة الثورات، والمؤامرات إلى حدوث وباء أو مجاعة وبالتالى إلى ارتفاع الأسعار (الغلاء)، لكن هذا اختلف فى بداية الدولة الأيوبية عن نهايتها، فقد بدأت الفتن الداخلية فى بداية حكم صلاح الدين الأيوبى متمثلة فى ثورة مؤتمن الخلافة جوهر ومؤامرة الجند السودان[1] ولكن صلاح الدين الأيوبى استطاع أن يقبض بيد من حديد على تلك المؤامرات والدسائس فقضى عليها ولم يكن فى حدوثها أى تأثير على حدوث أزمة اقتصادية فى العصر الأيوبى، أو بالمعنى الدقيق فى عصر صلاح الدين الأيوبى، ذلك أن صلاح الدين أقام الدولة الأيوبية على أسس وقواعد وتنظيمات إدارية وعسكرية حكيمة مكنتها من القضاء على أعدائها فى الداخل والخارج[2] بقيادة سياسية حكيمة، ويمكن القول أن السبب فى قلة حدوث الأزمات الاقتصادية فى عهد صلاح الدين الأيوبى أن الأيوبيين لم يكن عندهم مبدأ الحكم للأقوى كما حدث فى عصر المماليك كما سنرى، وأحسب أن يكون هذا المبدأ قد سار عليه الأيوبيين فى نهاية عهدهم بل بعد موت صلاح الدين الأيوبى الذى أرسى قواعد تلك الدولة، فنجد بعد وفاته، وبداية حكم خلفائه سواء أبناءه أو أخواته،

---

(١) مرفت عثمان حسن، التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي في مصر الشام، ماجستير كلية الآثار، جامعة القاهرة، سنة ١٤٢٣هـ ، سنة ٢٠٠٢م، ص٢٦.

(٢) استطاع صلاح الدين القضاء على الصليبين وهزيمتهم في حطين والتزاع بيت المقدس من أيديهم: مزيد من التفاصيل أنظر: ابن واصل، جـ٢، ص١٢٧ ص١٣٠ ، أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي محمد، راجعه: د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، سنة ١٩٦٢م، جـ٢، ص٢٧ ، العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسى في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٥، ص١١٧، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصبور الوسطى، ط٣، سنة ١٩٧٨، جـ٢، ص٧٤٣، حسنين ربيع، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية (ندوة تاريخ البحر الأحمر) جامعة عين شمس سنة ١٩٧٩، ص١٠٩ ص١١٠، د. عبد العزيز محمود عبد الدايم، بيت المقدس في العصر الأيوبي، القاهرة سنة ١٩٨٩م، ص١١٢ ص١١٣ ص١١٤، قدري قلعجى، صلاح الدين الأيوبي، ط٢، بيروت / لبنان سنة ١٩٩٤م ص٣١٥ ص٣١٦، د. مصطفى حسن محمد الكناني، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب العدد التاسع، المجلد الثاني، سنة ١٩٩٩م، ص ص٣٦٠ -٣٦٦.

- Lane – poole (S), Saladin and the full of Kingdom of Jerusalem, Beirut 1946, P225-226.
- Heinrich Von Sybel, History and literature of the Crusades, translated the German and edited by Lady Duff Gordon, with an index, London, New York, 1861, P71-72.
- Steven Runciman, A History of the Crusades, VII, Cambridge, 1951, P436. ، Zoe Oldenbourg, the Crusades, Translated from the French by Anne Cater, New York, (without date), P525.

الضعف والانهيار والانحلال، وتسود الفتن والاضطرابات، وتحدث مشاحنات عديدة مما يلقى عبئاً كبيراً على موارد الدولة الاقتصادية، فنشب العراك بين أبنائه وأخيه العادل حول تقسيم ممتلكاته[1] هذا وقد وقعت اضطرابات وفتن كثيرة فى عصر الدولة الأيوبية، ولكننا لسنا بصدد الحديث عنها إلا فيما يخص ما كان يحدث ويسبب أزمات اقتصادية للدولة كانت وفاة صلاح الدين نهاية مرحلة تاريخية وبداية مرحلة تاريخية، ونستطيع القول أن تلك اللحظة تكررت فى مختلف العصور وعند كل الشعوب التى كانت مصائرها ترتبط بشخصيات قادتها وزعمائها[2]

بدأت الصراعات الداخلية فى البيت الأيوبى التى سرعان ما انغمسوا فيها، ففى الوقت الذى توفى فيه صلاح الدين، ولم تمضى سنة واحدة على وفاته سرعان ما دب الشقاق[3] بين أبنائه وسائر أفراد أسرته، ففى نهاية عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م حدثت الوحشة[4] بين الأخوين العزيز والأفضل[5] أبناء صلاح الدين، فالعزيز عماد الدين تولى حكم مصر، والأفضل نور الدين تولى حكم بلاد الشام[6]، وحدثت فتنة بين الأخوين بلغت ذروتها عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، ولكن العادل أخو صلاح الدين تدخل، وفض النزاع بينهم، وقد حدث نزاع بين العادل نفسه وصاحب الموصل عز الدين مسعود بين مودود بن زنكى الذى طمع فى أخذ إقطاعات (أملاك العادل بالجزيرة وديار بكر، ووقف إلى جانب العادل أخاه عماد الدين زنكى الثانى صاحب سنجار ونصيبين، ولكن العادل تمكن من تأمين ممتلكاته فى تلك الأنحاء[7] ولكن دب النزاع مرة أخرى بين الأفضل صاحب دمشق والعزيز صاحب مصر، لكن الأفضل استنجد بعمه العادل[8] وفى الوقت الذى بدأ العادل يستعد لتحقيق ما تصبو إليه نفسه، كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية (أمراء صلاح الدين) والأمراء الأسدية[9] (أمراء أسد الدين شيركوه ورثهم صلاح

---

(١) أنتونى لتنج، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة د. راشد البراوى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤م ص٢٦٦.

(٢) د. قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٧.

(٣) د. السيد الباز العرينى، المماليك (الفروسية في مصر عصر سلاطين المماليك، درا النهضة العربية، بيروت، ص٣٥.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٣، ص ص١٤-١٥.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٥٠ ، ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ١، ق٢، ص٤٤١.

(٦) محمود الحويرى، العادل الأيوبي صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية،دار حراء، القاهرة سنة ١٩٨٠م، ص ص٤٨ -٤٩.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٣، ص ص٢٨-٢٩.

(٨) ابن واصل، :المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٩) كانت الأمراء الصلاحية والأمراء الأسدية ينافس كل فريق منهم الآخر، وكانت الأمراء الصلاحية متقدمة عند العزيز، فحسدها الأمراء الأسدية، وأخذ الملك العادل بدقيق حيلة يعمل في تأكيد الإيقاع بين الفريقين، فكاتب الملك العزيز سراً يخوفه من الأسدية ويغريه بإبعادهم وكاتب الأسدية بالتنفير من الملك العزيز وتخويفهم منه واستمالتهم إليه، فاستوحش =

الدين فى جيشه)، لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية فى هذا الوقت لعب العادل لعتبة[1] وأدرك أنه يستطيع التخلص من النزاع القائم بين الملك الأفضل والعزيز، فى الوقت الذى حدثت فيه أزمة اقتصادية نتيجة نقص ماء النيل فارتفعت الأسعار[2] وحدثت المجاعة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م التى عمت القرى والأرياف، ثم تبعها الوباء والفناء وعدم القوت واشتد الأمر على الخبز لقلته فى الأسواق[3] بالإضافة إلى انشغال مماليك الأيوبيين بنزاعاتهم واختلافهم مع بعضهم البعض، واستطاع العادل تحقيق ما تصبو إليه نفسه وذلك عام ٥٩٥هـ / ١١٩٨م، الذى جاء ليغير مجرى الأحداث كلها، فقد مات الملك العزيز أثناء خروجه فى رحلة صيد[4] عندما سقط عن فرسه ولم يلبث أن مات[5]، وتولى حكم مصر ابنه الملك المنصور ناصر الدين محمد[6] وكان عمره تسع سنوات وأشهر[7]، وكتبوا إلى عمه الأفضل فى صرخد حتى يتولى هو الوصاية على الطفل، ولكن العادل عندما بلغه ذلك جاء رده أن يجب ألا يتدخل الأفضل فى شئون مصر، ومرة أخرى دب النزاع والاضطراب الذى انتهى لصالح الملك العادل سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م، فأعلن أمام جماعة من الأمراء انفراده بحكم البلاد، وخلع السلطان الطفل المنصور محمد عن الحكم[8] فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة وأشهر[9]، هكذا تولى العادل سيف الدين محمد أبو بكر بن أيوب عرش السلطنة، وجعل ابنة الكامل ناصر الدين محمد نائباً عنه فى حكم مصر وولى عهده[10]

=الملك العزيز من الأسدية واستوحشوا منه، وعزموا على مفارقته... والانضمام إلى الملك العادل والملك الأفضل. راجع: بن واصل، مفرج الكروب، جـ٣، ص٤٦ ص٤٧ ، المقريزى، السلوك ، جـ١، ق١، ص١٢٤، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص١٩.

(١) ابن واصل، المصدر نفسه، جـ٣، ص٤٧.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١١٩.

(٣) على مبارك الخطط، جـ٧، ص١٨، جـ٢٠، ص١٣٦.

(٤) سيد على الحريرى، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، تحقيق د. عصام محمد شبارو، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٨م، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع ، ص٢١٦.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٩، ص٢٣٤.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٥٢.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٣، ص٨٧.

(٨) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص١٥٢.

(٩) مؤلف مجهول، كتاب الزهر السنية في الخلفاء والملوك المصرية، مخطوط بدار الكتب المصرية، تاريخ ١٢٨، ميكروفيلم ٤٦٢٦٨، ورقة ٦٠.

(١٠) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٣٥ ، الباز العرينى، المماليك، ص٣٧.

فكان له أن يتفرغ لشئون الدولة وينظر فى أحوالها وأحوال الرعية لكنه لم يكن فى استطاعته ذلك فقد حدث فى عهده أسوأ أزمة اقتصادية شهدها الدولة الأيوبية ومن الدلائل على حدوث أزمة ٥٩٦-٥٩٧هـ / ١١٩٩-١٢٠٠م، توقف ماء النيل عن الزيادة، فاضطربت أحوال الديار المصرية، وحصل الضرر الشامل للبلاد، وأكلت الناس بعضها بعضاً وعدمت الأقوات فصارت الناس تأكل بعضها بعضا، "حتى لم يبق بمصر دابة تلوح"(١)، مما أدى إلى تدهور أحوال البلاد إلي جانب سوء سياسة حكامها، وعندما سلم الله وانتهت تلك الأزمة قيل فى هذا المعنى

إذا ما رماك الدهر يوما بنكبة ... فهى لها صبراً، وأوسع لها صدراً
فإن تصاريف الزمان كثيرة ... فيوماً ترى عسراً، ويوماً ترى يسرا(٢)

مرة أخرى حدثت أزمة اقتصادية جديدة وذلك عام ٦١٥-٦١٨هـ / ١٢١٨-١٢٢١م عندما جاءت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر واتجهت إلى دمياط، واستولت على برج السلسلة(٣) فمات العادل من الحزن والحسرة، وتولى الكامل حكم مصر مكانة(٤) وعندما نزل الصليبيون بالدلتا انتشرت حالة الفوضى فى البلاد(٥) إذ نزحت قبائل البدو من سيناء والشرقية لتستفيد من حالة الفوضى، فقطعوا الطرق وأغاروا على القرى، ونهبوا وأفسدوا حتى كانوا أشد على المسلمين من الفرنج(٦) بالإضافة إلى وجود الخطر الأكبر الداخلى الذى هدد كيان المعسكر الأيوبى أثناء تصدية للصليبيين، ألا وهو تعرض الملك الكامل لمؤامرة من بعض كبار أمرائه وعلى رأسهم عماد الدين أحمد بن على المعروف بابن المشطوب، الذى كان هدفه عزل الكامل، وإحلال أخيه الفائز بدلاً منه، مما أدى إلى إضعاف عزيمة الكامل فى أول الأمر، وانقسام جيشه ثم هروبه من معسكره فى العادلية قاصداً أشموم طناح(٧) وقد بعث الكامل إلى

---

(١) ابن إياس، المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٥٤ ، عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار، ص٧١.
(٢) ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ١، ق٢، ص٥٩٣.
(٣) ابن الجوزى، المصدر نفسه، ص٥٩٣.
(4)Lanc- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, P213, Runciman (S) : History of the Crusades, Vol III,P 169.
(٥) مرفت عثمان حسن على، المرجع السابق، ص٥٠.
(٦) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، حوادث سنة ٦١٤هـ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٢٩.
(٧) المقريزى، السلوك، جـ١، ص١٩٦.

أخيه المعظم عيسى يستنجد به فحضر إلى أخيه "فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جناحه....."[(١)]، واستطاع الأخوان أن يتخلصا من أعدائهما، ويتفرغا لمحاربة الصليبيين.

في خضم تلك الأحداث المتلاطمة تغيرت سياسة الكامل وفتح باب المفاوضات بينهم وبين الصليبيين حتى أنه عرض عليهم أسخى عرض، وهو رد بيت المقدس لهم ولكنهم رفضوا ذلك[(٢)] ونظراً لسوء أحوال وانخفاض فيضان النيل، مما هدد البلاد بالمجاعة وانتشار الوباء[(٣)]، ففي عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م عندما تملك الفرنج دمياط[(٤)] احتاطوا بها براً وبحراً، وأحدقوا بها وأخذوا فى محاصرتها والتضييق عليها، وامتنع دخول الأقوات إليها بالكلية، كان كل ذلك بسبب حركة بن المشطوب ونيته السيئة، وحفر الفرنج على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً، "وبنوا عليه سوراً......وأهل دمياط يقاتلونهم أشد قتالاً ويمانعونهم...... وقلت عندهم الأقوات"[(٥)]، ولم يزل الفرنج يضايقون دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، ويقاتلون أهلها... حتى نفد ما عندهم من أقوات واشتد الغلاء بها جداً، واشتد بأهلها الجوع حتى مات أكثرهم، وعجزوا عن الحركة والدفاع... "وكثر الوباء فى أهل دمياط وضعفوا عن حفظها"[(٦)]

ولكن شاءت الأقدار نتيجة فيضان النيل وعدم معرفة الصليبيين بأرض مصر وانتهاز المسلمين فرصة ذلك فشلت الحملة الصليبية الخامسة، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة الحصول على بيت المقدس، فتم جلاء الصليبيين عن دمياط دون مقابل[(٧)]

هكذا شهدت مصر متاعب اقتصادية شديدة وذلك بسبب المجاعة والوباء اللذين أودا بحياة الناس سواء فى عهد الملك العادل أو الملك الكامل ولى عهده، ولا شك أن الحملة الصليبية الخامسة كان لها أكبر الأثر فى حدوث أزمة اقتصادية، وذلك لارتفاع أسعار المواد الغذائية أو

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، حوادث سنة ٦١٤هـ.

(٢) د. عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص١٤٤.

(٣) د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٩٣ ، د. عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص١٤٥.

(٤) د. على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني طـ٢، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٩م، ص ص٢٧٠-٢٧١.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص ص١٨-١٩ ، المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٠١.

(٦) ابن واصل، المصدر نفسه، جـ٤، ص ص٣٢-٣٣ ، المقريزى، السلوك، حوادث سنة ٦١٥هـ ، سنة ٦١٦هـ.

(٧) النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٩٤ ، د. سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص٢٣٥.

عدم وجودها من الأصل، ذلك لأن الحملة الصليبية الخامسة استمرت أحداثها ووقائعها على مدى أربع سنوات، استنفذت موارد الدولة المالية والمؤن والطعام والذخيرة والبشر[١]

استمرت خلافات البيت الأيوبي والعداء بين الأخوة الأيوبيين عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م، ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، لكن كانت أشدها خطورة على البلاد ما حدث من اضطرابات وفتن عام ٦٣٢-٦٣٣هـ / ١٢٣٧م وشهدت الدولة الأيوبية تفكك والحلال عن ذى قبل بسبب النزاع على السلطة من جهة، ووجود الخوارزمية الذين كانوا يهددون أملاك الدولة الأيوبية فى منطقة الجزيرة وديار بكر وأعالى العراق من جهة أخرى[٢]، فانشغال السلاطين والملوك فى الصراعات والفتن والاضطرابات الداخلية، جعلهم فى حالة بعد تام عن أحوال البلاد الداخلية فحدث الوباء العظيم والطاعون الذين كانا لهما أكبر الأثر على حياة البلاد فى كافة النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فمات خلق كثير[٣] تجاوز الحد[٤] استمر ثلاثة أشهر[٥] يفتك بالناس ويقضى على كل شئ أمامه، استمرت تلك النزاعات والخلافات قائمة ومستمرة إلى أن تولى الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر، وعندما تولى الحكم كانت الخزانة السلطانية خاوية، وكان بيت المال فارغاً[٦] وما تزال الأحوال الداخلية فى مصر والمنطقة العربية غارقة فى خضم الأحداث المتلاطمة من فوضى ونزاع واضطراب وفتن ، إلى أن جاءت الحملة الصليبية السابعة، والتى انتهت بالقضاء على الجيش الصليبي وأسر لويس التاسع نفسه في المنصورة بدار بن لقمان، وما حدث من أحداث سياسية وعسكرية، كانت بمثابة الصرخة التى أعلنت وفاة الدولة الأيوبية، كل هذا أدى إلى تدهور أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية فساءت أحوال كل شئ فى البلاد بسبب حدوث تلك الأزمات، ولا شك أن التنازع والتخاصم والتناحر كان سمة أساسية من سمات هذه الفترة، حيث حارب الأيوبيين بعضهم البعض، ولم يتفرغوا لحل المشاكل التى وضعوا فيها أنفسهم، سواء مشاكل البلاد الداخلية أو الرعية، وكان همهم الأكبر هو الصراع على الحكم والعرش، حتى أنهم سعوا إلى مهادنة الصليبيين كى يتفرغوا لقتال اخوتهم وبنى

---

(١) د. قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٨.

(٢) أسامه زكى زيد، الخوارزميون ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بنى أيوب، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٣٠، سنة ١٩٨٢م ، عبد العزيز عبد الدايم ، بيت المقدس، ص١٦٥.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص٢٥٠.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٩٣.

(٥) النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢١١ ، المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص٢٥٠.

(٦) المقريزي، المصدر نفسه ، جـ١، ق٢، ص٢٩٧.